الحرب المقدسة في التوراة

زياد منى *

* حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لايبزغ بألمانيا الشرقية (سابقا) عام ١٩٨٣م .
يعمل باحثًا مستقلاً .

الملخص

لقد تعامل العديد من علماء التوراة الأوروبيين ، ضمن إطار ، علم نقد التوراة ، مع مسألة «الحرب المقدسة» ، خاصة في فترة مبكرة من ولادة هذا العلم في ثمانينيات القرن الماضي ، ورغم إغنائهم الكبير لهذا العلم وللدراسات التوارتية بشكل عام ، وانطلاقًا من كون هؤلاء البحاثة من رجال الدين المسيحيين الورعين ، لم تتمكن أعمالهم ، ودون الانتقاص من قيمتها العلمية بأي شكل كان ، من القفز فوق أحكام مسبقة ولم تصل إلى درجة الاتساق المطلق المطلوب في هذا العمل .

ورغم أن العهد القديم لا يوظف ، في النصوص المترجمة ، مصطلح «الحرب المقدسة» ، إلا أنه يحوي الكثير من الإشارات المباشرة ، وغير المباشرة ، لهذه المسألة ، ومن ذلك تواجد إله التوراة يهوه في كافة المعارك المشار إليها في كتاب اليهودية والمسيحية المقدس ، وكذلك عبرتسجيل مباركته لهذه الحروب ، وهو الأمر الذي يتفق عليه أهل الاختصاص في كتاباتهم المنشورة ، لكن المشكلة في تلك الأبحاث أنها لم تحاول التمييز ضمن منهجية «علم نقد التوراة» ، بين تعاليم الكهنة من جهة ، وبين تعاليم أنبياء بني إسرائيل من جهة أخرى ، فالقراءة الواعية للنصوص ذات العلاقة بلغتها الأصلية تظهر أن الكهنة وظّفوا ممارسات الأسباط ، أو بعضًا منها ، والمرتبطة بدرجة محددة من التطور الاجتماعي ـ التاريخي ، لإحاطتها بهالة من القدسية وتحويلها إلى تعاليم دينية منسجمة مع طبيعة إلههم الذي تجلى كنار ، والتي نُعَرِّفها بأنها هي نار اليمن التي كثيرًا ما أشار إليها الإخباريون العرب ، وقد وقف أنبياء بني إسرائيل ضد أية حروب ، دفاعية كانت أم هجومية ، بل وعارضوا الكهنة وتعاليمهم ومؤسساتهم ، ووجهوا إليهم التهم بأقسى الكلمات وأكثرها صراحة . إن عملية التمييز هذه ، والتي تشكل إحدى النقاط الرئيسة للمقال ، تبين أن العهد القديم ينقل ، إن قرئ بالانفتاح العلمي المطلوب ، معلومات عن تطور ديانة بني إسرائيل وسيرها في اتجاهين متباينين : أولهما التوحيد المطلق والمجرد الذي تبناه ودعا إليه الأنبياء ، والثاني تعاليم الكهنة الآراميين من سبط يهوذا الذين حولوا التوحيد إلى الاقتصارية ، وربطوها بمقولات ذات طبيعة عرقية مثل ، «الشعب المختار» ، و«أرض الميعاد» وما إلى ذلك .

كما أن القراءة الصحيحة للعهد القديم في نصه الأصلي تبين أن الأسباط كانت قبائل عربية ، أي أعرابية ناطقة بلهجة كنعانية ، أي أن التوراة ، إن قرئت بتمعن ، لا توظف المصطلح ، «عبراني» كاسم جنس ، وأن الفهم الحالي السائد ناتج عن سوء قراءة النصوص ذات العلاقة ، وهو الأمر الذي يشرح عدم إشارتها إلى ملك عبري أو مملكة عبرية أو ما إلى ذلك ، وغياب أية إشارة من قبل أنبياء التوراة إلى الأجداد الأوائل مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف . . الخ .

إن قراءة كتاب اليهودية المقدس ضمن منهجية «علم نقد التوراة» الذي أسسه مجموعة من رجال العلم المسيحيين الورعين والقديرين ، تبين أن ذلك الكتاب يروي ، ضمن أمور كثيرة ، تطورين مختلفين لديانة بني إسرائيل ، والتي لم يعرف لها اسم ، مثّل القسم المتفتح منه والتجديدي الأنبياء ، والذي استمر في جزيرة العرب وعرفه القرآن الكريم والإخباريون باسم الحنيفية .

هناك كم لا ينتهي من المؤلفات والأبحاث والمقالات المتخصصة بالعلوم التوراتية ، والمتباينة في جديتها وقيمتها العلمية ، وجدل طويل ما يزال يسود الكثير من المسائل المرتبطة بكتاب اليهودية والمسيحية المقدس ، ومنها مسألة «الحرب المقدسة» موضوع هذا الإسهام . وحتى يتم إرساء أرضية علمية ثابتة للبحث ، ومد جسور منهجية لأي حوار محتمل حول موضوعة المقال ، لابد من إعلام القارئ بالمنهجية المتبعة ، أي «علم نقد التوراة» واستعراض أرضية العمل ، ولو بشكل موجز .

المنهجية والمعضلات العلمية

لقد ولد هذا العلم ، عمليًا ، في القرن الماضي بأوروبا على يد مجموعة من المتخصصين المجددين ، ووصل إلى درجة حاسمة من تطوره عندما طرح عالم اللاهوت الألماني يوليوس فلهاوزن ، [١] موضوعته عن مكونات العهد القديم في مؤلفه «مقدمة في تاريخ بني إسرائيل» [٢] والذي أثار ، في حينه ، عاصفة من الاحتجاجات من قبل الكنيسة ومعظم أهل الاختصاص ، الذين وسموه بشتى الصفات ، ووجّهوا إليه مختلف التهم ، وفي مقدمتها بالطبع التهمة المعتادة ، أي «معاداة السامية» ، وقد كان ردّ فعل ذلك العالم الكبير الذي كان ينتمي للمدرسة الهيجلية الابتعاد عن الأبحاث التوراتية والالتفات إلى البحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، حيث كتب مؤلفات عديدة هامة ، أشهرها «بقايا الوثنية العربية» [٣] ، ورغم أن فلهاوزن لم يكن مؤسس «علم نقد العهد القديم» فإن الفضل يعود إليه في اقتراح منهجية للتعامل مع مختلف النصوص ، بما يشرح ، كما رأى ، جذور التباين في الأسلوب والتركيب والمفردات ، ويساهم في فهم العهد القديم كوحدة متناسقة ، وبموجب ذلك التقسيم ، والذي أضحى منذ ذلك الحين أساس «علم نقد العهد القديم» ، اقترح فلهاوزن تقسيم «الخماسية» ، أي الأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، وهي : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، إلى تقاليد Traditions مختلفة بما يسهل ، وفق رأيه ، من وضع نظام يسهل تتبع تاريخ بني إسرائيل حسب رواية التوراة ، والذي يغطي مرحلة ، يرى أتباع المدرسة التقليدية ، أنها تمتد إلى ما يزيد عن ألف عام انتهت سنة ٥٨٦ ق .م . بالسبي البابلي على يد قوات نبوخذنصر ، والمعروف في التراث العربي الإسلامي ، باسم بختنصر . وقد رأى فلهاوزن ضرورة تقسيم الخماسية إلى تقاليد خمسة رئيسة هي :

١) **التقليد اليهوي** : ويشار إليه في هذا العلم بحرف (J) اختصارًا للصيغة الألمانية (Jahwist) المشتقة من اسم إله التوراة يهوه وبالألمانية (Jehowa) ،

وفي النص الأصلي ، أي الكنعاني < يهوه > ، ويُعتبر هذا التقليد المرتبط بالنصوص التي تعرف إله التوراة باسم < يهوه > ، هو التقليد الأقدم [٤] ووفق هذه النظرية ، تنقل النصوص العائدة إلى هذا التقليد ، قصص بني إسرائيل ، قبل ما يقال عن انتقالهم من التنقل إلى حالة الاستقرار ، ويلاحظ فيها بساطة ، بل بدائية ، المفردات المستخدمة فيه وتركيب الجُمَل.

٢) **التقليد الألوهيمي** : ويعرف في هذا التهذيب العلمي بحرف (E) اختصارًا للصيغة الألمانية (Elohist) ، ويتعلق بالنصوص التي تشير إلى إله التوراة بالاسم (ءلوهيم) ، وفي النسخة العربية (الله) .

٣) التقليد التثنوي : ويشار إليه بحرف (D) اختصارًا للكلمة (Deutronomium)، التي تفيد نفس المعنى . ويرى أهل الاختصاص أن هذا التقليد محصور بشكل شبه كُلّي في سفر التثنية .

٤) **التقليد الكهنوتي** : ويرمز إليه بحرف (P) من المفردة (Priestly) ، بمعنى كاهن . ويغطي هذا القسم النصوص التي يرى أهل الاختصاص أنها أضيفت من قبل الكهنة في بابل بعد تدمير مملكة يهوذا وسبي أعيانها إلى بابل . ويعتبر هذا أسهل التقاليد التي يمكن التعرف عليها ، لأنه يتدخل بشكل صارخ في النص ملحقًا التعليقات الوعظية واللاهوتية على الأحداث التاريخية المحض .

٥) **التقليد المحرر** : ويشار إليه بحرف (R) ، أي (Redactor) ، رغم أن البعض يفضل تسميته بالتقليد «الخارجي» ، وبالألمانية (L) Laien ، والمقصود بذلك «خبير ليس من رجال الدين» . ويرى أهل الاختصاص أن هذا التقليد هو الذي قام بجمع التوراة بكافة أسفارها من نصوص شفهية ومكتوبة ، أي أنه هو الذي أعطى كتاب اليهودية والمسيحية المقدس شكله الحالي . [٥]

وهنا وجب التذكر من جديد بأن هذا التقسيم يسري ، وفق رأي المدرسة

السائدة ، على الخماسية فقط ، ورغم وجود تباينات غير جوهرية لدى أتباع هذه المدرسة المنهجية حول حدود التقسيم ، كتب العالم الألماني أوتو آيسفلدت [٦] مؤلفًا ، في عشرينيات القرن الجاري ، قسم فيه الخُماسيّة إلى التقاليد المعتمدة حاليا،[٧] وهكذا يتبين أن المقصود بكلمة «نقد»[٨] في هذا العمل الذي يندرج تحت إطار «علم نقد التوراة» ، أساس هذا الإسهام ، ليس تخطئة كتاب اليهودية والمسيحية المقدس وإثبات أنه نتاج بشري ، وإنما محاولة فهم نصوصه ضمن إطار تاريخي اجتماعي محدّد ، أي أن كلمة «نقد» تعني هنا (فصل وتمييز) الضروب المختلفة المكونة للتوراة بما يسهل من قراءتها ، وبالدرجة الأولى ، فهمها ، ومما لا شك فيه أن أي قارئ لكتاب اليهودية والمسيحية المقدس يلاحظ وجود الكثير من التناقضات التي لا يمكن فهم جذورها وأسبابها ، إلا إذا نظر إليها ضمن إطار منهجية المقال ، وحيث إن مادة هذا الإسهام تتخصص في مسألة واحدة هي «الحرب المقدسة في التوراة» ، ونظرًا لمحدوديته ، فلا مجال هنا للخوض في تفاصيل الموضوع التي يمكن العودة إليها في المؤلفات المتخصصة التي سيشار إليها في الهوامش ، لذا وتفاديًا لأية تفاصيل قد تكون مملة للبعض ، نورد تاليًا مثالاً واحداً يوضح هذه المعضلة .

يقول الإصحاح الثاني من سفر التكوين ٣٧ (هذه مواليد يعقوب . يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام . .) ، لكنه ، وعلى عكس المتوقع ، لا يسرد اسم أي من هؤلاء الإخوة ، ولا في أي مقطع من الإصحاح ، هذا يثبت ، بنظرنا ، إما أن النص مقتطع من رواية أخرى ، أو ، وهو الأمر المرجح ، أنه مقحم من قبل جامعي التوراة ومحرريها .[١٠]

ومع تطور الأبحاث التوراتية في القرن الماضي والحالي الناتج أساسًا عن الاكتشافات الأثرية في المشرق العربي ، نضج هذا العلم ليضحى أكثر اكتمالاً ، حيث أثري من قبل العديد من أهل الاختصاص ضمن إطار منهجية تسهل فهمه

وفق تسلسل اجتماعي ـ تاريخي منسجم ، أي وضع منهج علمي يساعد ،قدر الإمكان ، في رسم تسلسل منطقي يحلّ إلى حدّ ما ، ما يحويه من معضلات ، وقد تُوِّجت تلك الاجتهادات بموضوعة تفترض ، وكما سجّلنا أعلاه ، وجود مصادر متعددة ، شفهية ومكتوبة ، ساهمت ، وبشكل منفصل عن بعضها البعض ، في تسجيل التوراة ، ويستند هذا الاتجاه العلمي إلى البحث في النص والمصدر واللغة والنحو والضرب الأدبي لكتاب اليهودية والمسيحية المقدس .

وهناك ، وفق هذه المنهجية ، نوعان من النقد يعرف أولهما باسم «النقد الأدنى»[١١] ويتعامل مع الأخطاء الكتابية واللغوية الواردة في التوراة بهدف تصحيحها ،فعلى سبيل المثال ، يقول سفر التكوين ١٩ : ٢٤ ، وفق الترجمة التقليدية ، وبالتالي ، الفهم السائد ، [١٢] (فأمطر يهوه[١٣] على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند يهوه من السماء) ، والتي لا معنى لها ،لكن إذا نُظر إلى المفردة «يهوه» الثانية في الجملة بمعنى (هو) ، وليس اسم إله التوراة ، تستقيم بنية الجملة تمامًا وتضحى (فأمطر يهوه على سدوم وعمورة كبريتا ، وهو نار موت من السماء) .

أما النوع الثاني فهو «النقد الأعلى» ، [١٤] ويبحث في النصوص ضمن إطار تاريخي ـ اجتماعي ، ومثال ذلك أن الإصحاحات ٤٠ ـ ٤٢ من سفر نبي بني إسرائيل إشعيًا ، والمفترض أنه نشط في يهوذا في السنوات ٧٣٥ ـ ٦٩٧ق .م ، لا تتعامل مع مسائل تعود للفترة التي يفترض أنه عمل خلالها ، وإنما لمرحلة السبي وما بعده ، أي للقرن السادس قبل الميلاد ، [١٥] والسبب أنها ترثي سقوط أورشليم [١٦] في أيدي قوات بابل ، والمفترض أنه حدث بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان ، والمثال الآخر مرتبط بالإصحاحات ٤٠ ـ ٥٥ من السفرنفسه ، والتي تنقل الأمل في كون ملك الفرس المسمى كورش ، هو المسيح المنتظر ، [١٧] علمًا بأن الفرس هم الذين قضوا على مملكة بابل عام ٥٣٩ ق .م . . هذا يوضح أن هذه النصوص تعود إلى أحد التقاليد المشار إليها أعلاه .

بهذا يستكمل استعراض الأرضية العلمية التي تشكل أساس البحث ،أي ضرورة أن يأخذ الباحث في المادة ، بعين الاعتبار ، التباينات النصية والمفردية والتاريخية وغيرها ، حتى لا يقع في خطأ تعميمات واستنتاجات غير جادة ، وهذا ، بكل أسف ، حال ما اطلعنا عليه من الدراسات التي نشرت حتى الآن باللغة العربية ، هذه حقيقة تدعو للأسف ، لأنها تظهر أن المكتبة العربية لم تتمكن من تقديم دراسات توراتية بعيدة عن المفاهيم الفكرية والسياسية بينما هناك حاجة ماسة ، على ما نعتقد ، للإمساك بزمام المبادرة في هذا العلم وتأسيس «علم نقد توراة» عربي ، وهذا أحد أهداف هذا الإسهام .

ومن المعضلات الرئيسة التي تواجه أي باحث وجود عدة نسخ من العهد القديم تتباين في محتوياتها وترتيبها ، إلى حدّ كبير ، عن بعضها البعض ، فهناك نسخة «السبعونية» ، اليونانية ، والتي هي أقدم ما يوجد حاليًا من الترجمات ، وأنجزت خلال فترة امتدت إلى ما يقرب من ثلثمائة عام اختتمت قرب نهاية القرن الرابع ، وتعرف بالاسم الأصلي (Septuagenta) ، وتضم أسفارًا عديدة غير معترف بها من قبل تيارات اليهودية الرئيسة حاليًا ، كما يوجد نسخ أخرى مسجلة بما يعرف باللغة الآرامية تسمى «الترجوم» ، علمًا بأن بعضًا منها ليس ترجمة حرفية للنص الكنعاني لأنها تحوي تفسيرات إضافية ، أما النسخ المعروفة فهي التالية :

- **ترجوم أونكلوس** «Onkelos» : يحوي الخماسية فقط ، ويعتقد بأنه أنجز في بابل ، لكن لا يوجد إجماع حول أصول الاسم أو مكان نشوء النسخة .
- **الترجوم اليروشليمي (١)** : يبدو أنه خضع لتحريرات مستمرة لأنه يطلق على زوجات إسماعيل بن إبراهيم في التوراة أسماء خديجة وفاطمة .
- **الترجوم اليروشليمي (٢)** : ويسمى أيضًا (The fragments Targum) ، أي «الترجوم المبعثر» .

- **ترجوم جنيزه** : وهي قطعة عثر عليها في كنيس يهودي بالقاهرة قرب نهاية القرن الماضي .

- **ترجوم توسفتا** : يحوي مواد تعتبر من مفاهيم الكهنة .

- **ترجوم نيوفيتي** : هي نسخة كاملة من الترجوم الفلسطيني عثر عليها عام ١٩٥٦ ، وتعود لسنة ١٥٠٤م ، ويعود الاسم لشخص أهدى نسخة من وثائق «عبرية» وآرامية للفاتيكان .

- **ترجوم يوناثان للأنبياء** .

- **ترجوم للكتب** .

- **ترجوم اللفائف** .

- **ترجوم لكتابي أخبار الأيام** .

وللكنيسة الكاثوليكية نسخة خاصة بها من العهد القديم تعرف باسم «فولغاتا ـ Vulgata» ، أي «الشعبية» ، وتحوي أسفارًا أخرى محذوفة من النسخة المعتمدة حاليًا ، أما النسخة الأقدم من العهد القديم المسجل بالآرامية ، فهي لفائف البحر الميت .

وتعود نسخة التوراة الموظفة في هذا البحث ، والمعترف بها حاليًا من قبل التيار الرئيسي في اليهودية ، أي «الفريسي» إلى عام ١٠٠٨م ، وتسمى «اللينينغرادي» حيث توجد النسخة الأصلية ، والتي تتباين إلى درجة كبيرة عن النسخة اليونانية الأقدم ، أما أقدم نسخة متوفرة حالياً بلغة التوراة فهي المعروفة باسم «جنيزه» وجدت في القاهرة وتعود لعام ٩٩٨م ، لكنها غير كاملة ، وحيث إن أحد أسس أي بحث متناسق في هذا العلم ، وبالتالي هذا المقال ، قراءة النصوص القديمة ، وحتى يمكن إنجاز بحث علمي جدي ، فإن العودة إلى النصوص الأصلية

مسألة لا يمكن الاستغناء عنها ، حيث إن الترجمات كثيرًا ما تبتعد ، إما قصدًا ، أو نتيجة اجتهاد خاطئ ، [١٨] ولا شك أن الترجمات ، أيًا كانت مادتها ، تقود ، أحيانًا عمدًا ، وخاصة عندما تتعلق بمادة حساسة مثيرة للعواطف ، إلى ظهور تباينات عن النص الأصلي ، وفي حالة العهد القديم الذي كُتب بلغة تعتبر ميتة منذ القرن الثالث ق .م . على أقصى تقدير ، فقد أدت الترجمات ، ضمن العديد من الأمور ، إلى ضياع المعنى الأصلي لبعض النصوص ، وكذلك إلى تشويه بنى الجمل ، وقد قدمنا في قسم سابق من العمل مثالاً على ذلك ، وحتى يكون القارئ على بينة من الأمر ، خاصة أن هذه المادة تشكل إحدى ركائز منهجية بحثنا ، ولتفادي الغور في تفاصيل قد تتفرع كثيرًا ، نورد تاليًا ،لتوضيح المسألة ، نصين ،أحدهما يرد في الترجمة الألمانية ، والثاني مسجل في الترجمة العربية المعتمدة .

يتعلق النص الأول بسفر صموئيل الثاني ١٢ : ٣١ الذي يواصل سرد رواية توراتية عن تغلب داود على شعب قديم كان جارًا لدودًا لبني إسرائيل ، على ما تقوله التوراة ، وعرَّفته باسم بني عَمُّون ، وبعد أن تم للأول الانتصار عليهم ، وفق معلومات صاحب النص الذي ترجمه مارتن لوثر ، [١٩] مؤسس التيار البروتستانتي في المسيحية ، يقول ، بما معناه بالعربية (وأخرج الشعب الذي فيها ، ووضعهم تحت مناشير ونوارج وفؤوس حديد ، وأحرقهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون) ، أما النص الوارد في نسخة الكتاب المقدس الألمانية (Der Bibel) ،فقد غيِّر في منتصف ستينيات القرن الحالي ، وبأوامر من المؤسسات الكنسية البروتستانتية المتخصصة ، ليعني (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج وفؤوس حديد وشغَّلهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون) ، والأمر ذاته ينطبق على النسخة الإنجليزية ، [٢٠] ويورد النص العربي المعتمد الجملة بصيغة (. . . .وأمَّرهم في أتون الآجر . . .) ، [٢١] ومن الواضح هنا أن سبب تغيير هذا النص في النسخة الألمانية ، أي الحرق

في الأفران ، لم يتم بشكل اعتباطي ، وإنما هو عمل مقصود ، ودافعه سياسي - لاهوتي ، ورغم أنه لا اعتراض إطلاقًا على حق أي باحث في التعامل النقدي مع بعض الممارسات التاريخية لقومه ، فيجب أن لا يغيب عن ذهننا أن المادة تتعلق بنصوص يرى مترجموها ، وهم رجال دين متخصصون وقادرون ، أنها مقدسة ، أي نتاج وحي إلهي ، ولا يجوز ، بالتالي ، العبث بها ، فإذا كان الفهم السائد لذلك النص من العهد القديم يشير إلى أن داود قام بإحراق أسراه في الأفران ، فلا يوجد ، وفق ما نرى ، أي مبرر لتغييره ، وإذا كان هناك من يجد عذرًا للألمان في تغييرهم للنص ، فإن عمل الإنجليز ، وغيرهم ، غير مفهوم أبدًا ، إلا إذا نظر إليه من وجهة نظر سياسية ،[٢٢] وبالنسبة لنا ، لا يوجد هناك أي عذر لأي إنسان ، لكن بغض النظر عن الدوافع ، يتبين أن الترجمة ، في أحسن الأحوال ، غير دقيقة ، ولا يمكن بالتالي اعتمادها كمرجع .

أما المثل الثاني المستقى من الترجمة العربية ، فهو نص يرى الرأي التقليدي أنه مرتبط بمسألة ما يعرف بـ «شعوب البحر» ، وأصولها ،[٢٣] فالترجمة العربية التقليدية لسفر صموئيل الثاني ٨ : ١٨ تقول (وبناياهو بن يهوياداع على الجلادين والسعاة وبنو داود كانوا كهنة) ،[٢٤] لقد فهم المترجمون أن المفردة الأصلية < هفلتي > تعني «السعاة» ،[٢٥] وأن < هكرتي > تعني (جلادين) ، وسبب هذا التأويل ، على ما نعتقد ، أن المفردة التوراتية < كرت > تعني (قَطَعَ ،بَتَرَ) ، لكن هذه الترجمة خاطئة تمامًا لعدة أسباب ، أولها أن المفردة < هكرتي > ترد بصيغة المفرد والنسبة إلى <كرت> وليس بأسلوب الجمع ، ثانيًا ، من الصعب القبول بأن المقصود هنا «جلادين» لأنه يشار إلى تعيينهم ككهنة من قبل داود ، ودون إضافة تعقيب أو لوم من قبل «المحرر» الولع بالتعليقات والمواعظ ، لداود على هذا القرار ، ويضاف لذلك حقيقة أن أداة الجر المضافة إلى الترجمة العربية ، أي «على» ورديفها بلغة التوراة < عل > ،غير واردة في النص

الأصلي ، لذا تكون الترجمة الصحيحة لهذا النص على نحو (وبنيهو بن يهويدع والكرتي والفلتي وبني داود كانوا كهنة) ، ومن الواضح أن المترجمين ووجهوا بمأزق ، فإذا قاموا بترجمة <هكرتي> ، إلى (الكريتيين) ، أي أهل جزيرة كريت ، لوجد دليل على أن الكهنة لم يكونوا فقط من بني إسرائيل ، أي من «الشعب المختار» ، وإنما أيضًا من «شعوب البحر» ، التي يقال إنها غزت المشرق العربي قادمة من شمالي البحر المتوسط ، واستقرت فيه ، وإذا تمت ترجمة المفردة إلى (الجلادين) ، فهناك أيضًا مشكلة في كيفية دخول مثل هؤلاء الأفراد إلى سلك أو مؤسسة الكهنوتية ، والمشكلة الثالثة هي أن كلا الاسمين يأتي بصيغة المفرد ، مما قاد المترجمين إلى تحوير النص بشكل كامل ، وإضافة أداة الجر (على) غير الموجودة في النص الأصلي ، وهنا ، لا نرجح أن هدف المترجمين من تغيير النص كان سياسيًا ، ونعتقد أنه أُوِّل لدعم اجتهاد في محاولة لشرح نص لم يفهموه أصلاً.

وبغض النظر عن النوايا ، نعتقد أننا أوضحنا الأخطاء الفادحة الناتجة عن اعتماد الترجمات ، وضرورة العودة إلى اللغة الأصلية بما يمكن من تحليل النصوص ذات العلاقة وفهم ما أراد كاتبوها قوله ، وسيرى القارئ في أجزاء لاحقة من المقال ، مدى التغييرات والتشوهات التي تنتج عن الترجمات المرتكزة على مفاهيم لغوية وجغرافية واجتماعية ـ تاريخية خاطئة .

قلنا إن العهد القديم يحوي ، بالإضافة إلى العديد من الضروب الأدبية مثل الشعر والمواعظ ، الخ ، مواد تضمّ خرافات وأساطير وقصصًا ، بل حتى طرائف ، استقاها جامعوه ومحرّروه من محيطهم الحضاري ، وأدخلوها في كتابهم المقدس، لكن دون أن يعني بالضرورة أنه تراثهم هم ،[٢٦] وهنا ، وقبل الاسترسال في مقالنا ، من الضروري توضيح ما نقصده بالتعابير الثلاثة حتى يسهل تأسيس قاعدة علمية للنقاش والحوار العلمي البنّاء .

إن الميثولوجيا (Myth) ضرب أدبي لا يحوي سوى الخيال ، ولا علاقة لها بتاريخ ضمن إطار جغرافيا حقيقية ، وعادة ما تربط بقصص الآلهة الوثنية الإغريقية والرومانية وغيرها بالطبع ، أما الأسطورة ، [٢٧] (Legend) فهي شكل أدبي ينقل ، وبشكل عام ، تصوّرًا مليئًا بالخيال لواقع محدد ، أي تصويرًا شاعريًا للتاريخ الذي يعتمد بدوره دقة محددة في نقل الأحداث بصورة مباشرة وجافة ، والقصة (Story, tale, fable) ، صنف أدبي اختلق من قبل الكاتب بهدف التسلية أو ما إلى ذلك . [٢٨]

ورغم أن أتباع المدرسة التقليدية في علم «نقد العهد القديم» يوافقون على الرأي باحتواء العهد القديم ضروبًا أدبية مختلفة ، فإن الاعتراف العلني ، من قبل علماء التوراة ، باحتواء كتابهم المقدس على خرافات وأساطير وقصص ، أمر غاية في الصعوبة ، السبب أنهم من رجال اللاهوت الورعين الذين يتعاملون مع النصوص من وجهة نظر دينية محض ، لكن هذه النظرة تعوق التفاعل العلمي المنسجم إلى أقصى الحدود ، والمطلوب في مثل هذا البحث ، لأنها تجبرهم على التقيد بخطوط غير قابلة للتجاوز ، لكن دون أن يعني ذلك الانتقاص من قيمة إبداعات قسم منهم ، أو لنقل ، إنهم لم يتمكّنوا من تجاوز أحكام مسبقة ، لأن ذلك كان سيعني ، بنظرهم ، البحث في «المحرمات» و«المقدسات» ، إن هذا النمط من التعامل ، على ما نرى ، أحادي ويُعطِّل ، إلى حدّ كبير ، قراءة النصوص بطريقة علمية متماسكة ، وهنا نذكر بأن إسهامنا يدخل ضمن إطار تجديدي ، يختلف جوهريًا عما نشر عن الموضوع حتى الآن ، ولكن يمكن مراجعة الآراء التقليدية في أي كتاب متخصص ، [٢٩] هذه حقيقة يجب أن لا تغيب عن ذهن القارئ ، ذلك أننا نعتبر إسهامنا الحالي وتلك المشار إليها في الحواشي ، أبحاثًا تاريخية ـ اجتماعية في العهد القديم من وجهة نظر قارئ تاريخ عربي .

ولإثبات وجهة نظرنا بخصوص الضروب الأدبية التي يحويها العهد القديم ، وأثر ذلك على فهمه بشكل مستقيم ودعم مقولات بحثنا هذا ،

سنستعرض تاليًا ، وبشكل مختصر ، بعضًا منها ، متحررين من أية أحكام ، وعظية كانت أو لاهوتية ، أو غير ذلك .

تنقل المقاطع ٢٤ ـ ٣٢ من الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين (. .فبقي يعقوب وحده . وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حقَّ فخذِه . فانخلع حُقُّ يعقوب في مصارعته معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك . فقال يعقوب . فقال لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . .) . هذه ميثولوجيا لأن الآلهة لا تصارع البشر ، وأُقحِمَت في العهد القديم بهدف محاولة فاشلة بالطبع ، لتعريف أبو الأسباط المزعوم يعقوب بالاسم إسرائيل ، ولشرح معنى الاسم أيضًا ، ومن الواضح أن أصل هذه الخرافة تقديم خلفية دينية لشرح أو لتبرير تحريم الكهنة أكل عرق النسا ، ذلك أن الجملة اللاحقة تقول (وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه . لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النِسا الذي على حُق الفخذ إلى هذا اليوم . لأنه ضَرَبَ حق فخذ يعقوب على عرق النِسا) .

وهناك ميثولوجيا طريفة أخرى ترد في سفر الخروج ٤ : ٢٤ ـ ٢٦ وهي (وحدث في الطريق في؟ المنزل أن يهوه التقاه [٣٠] وطلب أن يقتله . فأخذت صفورة صُوَّانة وقطعت غرلة ابنها ومسَّت رِجليه . فقالت إنك عريس دم لي . فانفك عنه . حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان) ، هذه أيضا ميثولوجيا عن تصارع آلهة ـ أي الإلهة يهوه والإله موسى ، وفي النص الأصلي <مشه ، مسه> ، استقاها «المحرر» الكهنوتي من محيطه الحضاري ، وأدخلها في التوراة لتقديم خلفية لاهوتية لفرض الختان في التوراة .

الآن وقد قدمنا مثالين يثبتان أن أرضية بعض تعاليم الكهنة خرافات ، يمكننا مواصلة البحث في موضوع مقالنا .

الحرب المقدسة في التوراة

سنباشر تقصينا موضوع الحرب المقدسة في العهد القديم باستعراض نصوص مختارة، تعود إلى مراحل تاريخية مختلفة من تطور بني إسرائيل الاجتماعي، ونرى أنها تدعم رأينا في الموضوع.

تقول التوراة إن يهوه أمر موسى ولفيفه بالخروج من إقليم ما تُعرِّفه بالاسم «مصريين»،[٣١] والاتجاه نحو أرض الميعاد التي تفيض لبنًا وعسلاً، والمسألة هنا ليست الجغرافيا، وإنما الأخذ علمًا بأن الإقليم عرّفَه التقليد «المحرر» الكهنوتي باسم «أرض الميعاد» أي الأرض التي وعد بها إله التوراة أتباعه، أي أن احتلال تلك الأرض، أو السيطرة عليها، كان إنجازًا مقدسًا لأنه يتم تنفيذًا لإرادة يهوه، وحيث إن التوراة تقول بأن تلك البقعة الجغرافية كانت مأهولة بالسكان، وانطلاقًا من حقيقة تاريخية لا خلاف عليها، كما نأمل، أنه ما من شعب، أو قبيلة، الخ، يتخلى طوعًا عن بلده أو موطنه لغزاة دون مقاومة، فقد كان من الطبيعي أن يقوم الدخلاء بشن حرب هجومية ضدّه، نجد دعمًا في أن المقصود هنا «الحرب المقدسة»[٣٢] حقيقة تواجد يهوه في كافة المعارك، على هيئة روح خفية تسكن صندوقًا خشبيًا أطلق عليه العهد القديم اسم «تابوت العهد»، ومن الواضح أن سبب القول بتواجده في المعارك، هو مباركة الحرب وأتباعه، وحتى يتبين للقارئ مدى ما يحويه كتاب اليهودية والمسيحية المقدس من إشارات صريحة وضمنية عن الموضوع، نستأذن في سرد المقاطع التوراتية التي تتعامل مع المسألة، وبالإسهاب المطلوب.

يقول سفر العدد ٧ : ١ ـ ٦ (متى أتى بك يهوه إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وتطرد شعوبًا كثيرة من أمامك . . فإنك تحرمهم،[٣٣] لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم . . تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار . . لأنك شعب مقدس ليهوه إلهك . إياك قد

اختار يهوه إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) ، والسبب (مباركًا تكون فوق جميع الشعوب . . وتأكل كل الشعوب الذين يهوه إلهك يدفع إليك) ،[٣٤] لكن هذا لا يسري على البشر وحسب ، وإنما (ضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتُحرَق بالنار ، المدينة وكل أمتعتها كاملة ليهوه إلهك فتكون تَلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد) ،[٣٥] وهذا بالضبط ما فعله موسى التوراة ، ودون أي تردد ، فبعد تنفيذه أمر إله التوراة بشن حرب مقدَّسة ضد مِدْيان ، قام بقتل كل ذكر فيها وملوكها أيضًا،[٣٦] لقد كانت المذبحة جماعية، وفي الوقت نفسه هدفًا بحدّ ذاته ، لأن المذكور سخط (على وكلاء الجيش . . وقال لهم هل أبقيتم كل أنثى حية . .فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها . . اثنين وثلاثين ألفا) .[٣٧]

وتستمر هذه الحرب المقدسة بقيادة موسى التوراة ضدّ سيحون ملك حشبون ، وتصل النشوة عنده في قول سفر التثنية ٣٣ : ٢ ـ ٣٤ على لسانه (فدفعه يهوه إلهنا فضربناه وبنيه وجميع قومه ، وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال . لم نبق شاردا) ، وكذلك فَعَلَ بعوج ملك باشان وستين مدينة له حيث (حرّمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون . محرمين كل مدينة ، الرجال والنساء والأطفال) ،[٣٨] لم يقبل كهنة يهوذا أية مهادنة مع الشعوب الأخرى ، لذا يؤمر موسى بأن تصرّفه مع الشعوب يجب أن يكون حاسمًا ، وبهذا الخصوص يقول سفر الخروج ٣٤ : ١١ ـ ١٣ (ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهدًا من سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا في وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم) ، الهدف ، إذن ، إبادة ، ليس البشر وحسب ، وإنما الممتلكات أيضًا ، وبتعبيرات العصر ، سياسة الأرض المحروقة ، لذا فمن يفكر بالاحتفاظ بـ «الغنائم» ، فإن عقوبته

منصوص عليها في سفر يشوع ٧ : ٢٤ ـ ٢٥ الذي يسجل (فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ما له . . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة) .

كما تحوي التوراة ، وفق رواية «المحرر» الكهنوتي ، إشارات إضافية للسياسة التي وجب اتباعها تجاه المدن أو الشعوب التي لا تعترف بالعطاء اليهوي لأتباعه ، أي تجاه تلك الشعوب التي تقاوم «الغزو المقدس» . ومن ذلك قول سفر التثنية ٢٠ : ١٠ ـ ١٧ (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح ، فإن أجابتك وفُتِحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها . وإذا دفعها يهوه إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال . . فتغتنمها لنفسك . . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك يهوه إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نَسَمَة ، بل تحرمِّها تحريما . . كما أمرك يهوه إلهك) ،لكن حرب يهوه المقدسة لم تكن دفاعية إطلاقًا ، بل هجومية لأن سفر التثنية ٢ : ٢٤ يقول على لسان يهوه (قد دفعت إلى يدك سيحون ملك حشبون الأموري وأرضه . ابتدئ تملك وأَثِر عليه حربا) .

ولم تكن تلك سياسة موسى التوراة فحسب ، بل الأسلوب الذي سلكه جميع أتباعه ،فالتوراة تقول في سفر يشوع ٦ : ١٦ ـ ٢١ إن الأخير وقف أمام المدينة يريحو[٣٩] و(قال للشعب اهتفوا الآن لأن يهوه قد أعطاكم المدينة . فتكون المدينة وكل ما فيها محرّمًا للرب . . وحرِّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) ، كذلك قال يهوه ليشوع (. .فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بيرحو ،غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لأنفسكم) ، [٤٠] و(. . لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل . . رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف . فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا . جميع أهل عاي . . كقول يهوه تفعلون) ، [٤١] والأمر

نفسه ينطبق على مقيدة ولبنة ولكيش وجازر وعجلون وحبرون ودبير ، وأكمل يشوع حربه المقدسة عبر (ضرب . . كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها . لم يبق شاردا بل حَرَّم كل نَسَمَة كما أمر يهوه إله إسرائيل) ،[٤٢] ثم استمر في فتوحاته ضد مدن حاصور ومادون وشمرون وأكشاف وضربهم (حتى لم يبق لهم شارد . ففعل يشوع كما قال له يهوه . .) ، وذلك حسب رواية سفر يشوع ١١ : ١ ـ ٩ ، وهذه كانت سياسة يهوه الدائمة لأن يشوع عمل (حربا مع أولئك الملوك أياما كثيرة . لم تكن مدينة صالحت بني إسرائيل إلا الحويين . . لأنه كان من قبل يهوه أن يشدد قلوبهم حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة فيحرموا فلا تكون عليهم رأفة بل يبادوا كما أمر يهوه موسى) ،[٤٣] ويعدد العهد القديم المدن والملوك الذين سقطوا ليشوع في حربه المقدسة بواحد وثلاثين ملكا .

وبعد وفاة يشوع ، استأنفت الأسباط نفس السياسة حيث حاربوا (أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار . . وضربوا الكنعانيين سكان صفاة وحرموها) ،[٤٤] وكذلك مع بيت إيل ،[٤٥] ثم قاموا بمحاربة مؤاب بأمر من يهوه وقتلوا (نحو عشرة آلاف رجل . . ولم ينج أحد) ، وذلك وفق ما يرد في سفر القضاة ٣ : ٢٨,٢٩ . ثم حاربوا فلستيم [٤٦] وقتلوا (ستمائة رجل) ،[٤٧] كما يفتخر سفر القضاة ٩ : ٤٩ بأن الأسباط حاربت شكيم وبرج شكيم (وأحرقوا عليهم الصرح بالنار . فمات أيضا جميع أهل برج شكيم نحو ألف رجل وامرأة) ، ولم تكن الحروب المقدسة موجهة فقط ضد من قاومهم لأنهم (جاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن وضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار) ، وهذا ما نقرأ في سفر القضاة ١٨ : ٢٧ .

ولم تكن حروب يهوه المقدسة موجهة ضد القبائل والمدن الأخرى فحسب ، بل كان من الطبيعي أن تنتشر بينهم ، وفي هذا المقام يروي العهد القديم في سفر القضاة ٢٠ : ٢٤ ، ٢٥ بأن باقي الأسباط (. . . .حاربوا سبط بنيامين بأمر من يهوه وقُتل من إسرائيل حينئذ ثمانية عشر ألف رجل) ، ثم (ضرب يهوه

بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألف رجل ومائة رجل) ، وانتهى الأمر بهم بأن (ضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها حتى البهائم ، كل ما وجد ، وأيضا جميع المدن التي وجدت أحرقوها بالنار) .[٤٨]

ولم يتخلف أول ملوك إسرائيل المسمى شاوُل ، عن الركب حيث قال له نبي التوراة صموئيل (وأرسلك يهوه في طريق وقال اذهب وحرم الخطاة عماليق وحاربهم حتى يفنوا . . إياي أرسل يهوه . . والآن فاسمع صوت يهوه . . فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة . طفلا ورضيعا . بقرا وغنما حملا وحمارا . . وضرب شاوُل عماليق . . وحرم جميع الشعب بحد السيف) ،[٤٩] ولكن لأنه لم ينفذ أمر يهوه بقتل الدواب أيضًا ، لامه النبي على فعلته هذه ، ومن الجدير بالملاحظة أن «المحرر» يرجع سبب انتقال السلطة في بني إسرائيل من سبط شاوُل ، أي بنيامين ، لداود من سبط يهوذا ، لأن الأول لم يفن الدواب أيضًا ، وهنا تقول التوراة إن هذا التصرف كان سبب سقوطه وانتحاره .

أما داود ، الذي يقال إنه وحد الأسباط في مملكة واحدة ، فقد واصل تلك السياسة ، حيث إن مهره لميكال ابنة شاوُل كان مائتي غِلْفَة لأنه (قام . . وذهب هو ورجاله وقتل من فلستيم مائتي رجل وأتى داود بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك) [٥٠] ، وصعد داود (. . ورجاله وغزوا الجشوريين والجرزيين والعمالقة . . وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلا ولا امرأة) ،[٥١] أي أنه عمل وفق الصلاة المنسوبة إليه والقائلة :

أ لحق أعدائي فأهلكهم

ولا أرجع حتى أفنيهم .

أُفنيهم وأسحقهم فلا يقومون

بل يسقطون تحت رجلي ...

تُنطقني قوة للقتال

وتصرع القائمين عَليَّ تحتي ...

وتُعطيني أقفية أعدائي ومبغضيَّ فأفنيهم ...

فأسحقهم كغبار الأرض مثل طين الأسواق ...

لذلك أحمدك يا يهوه في الأمم

ولا سمك أرنم [٥٢]

ورغم أن التوراة توجه اللوم إلى داود على ما ارتكبه من مجازر، نجد أنها تسجل أن إله يهوه كان معه في حروبه لينصره، أي أن تصرفاته كانت تنفيذاً لأمر إلهه.

وقد استأنف هذه السياسة [٥٣] كافة ملوك يهوذا لأنه (في اليوم السابع اشتبكت الحرب فضرب بنو إسرائيل من الآراميين نحو مائة ألف راجل في يوم واحد). [٥٤]

والأمر ذاته ينطبق على الروايات والأعاجيب المرتبطة بموسى التوراة، والتي عملها بأمر وبقدرات منحت له مؤقتًا من يهوه، وبهذا الخصوص، يقول سفر الخروج ٧ : ١٧ ـ ١٨ إن موسى قام بضرب ماء النهر بعصاه وتحويلها إلى دم، هذا التصرف اليهوي أدّى إلى إبادة السمك الذي في النهر، والمسألة نفسها تنطبق على الضفادع التي ملأت أرض مصرييم بأمر يهوه وأبيدت أيضًا بأمره، وذلك وفق رواية سفر الخروج ٨ : ١٣، وكذلك المواشي والخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، والمذكورة في سفر الخروج ٩ : ١ ـ ٧، وتصل هذه الطبيعة إلى إحدى

ذرواتها عبر قتل كل بَكر في أرض مصرييم (. . . من بكر فرعون الجالس على كرسيه ، إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة ، إلى بكر الأسير الذي في السجن) ،[٥٥] ثم تتصاعد من جديد عبر ما ينقل على لسان يهوه من أمره لموسى في سفر الخروج ١٣ : ١١ ـ ١٥ بتقديم قرابين له من بكور البشر ، هذا رغم أن «المحرر» حول الأمر إلى فدية . أولا تصف التوراة يهوه بأنه (رجل حرب ، يهوه اسمه) ،[٥٦] وهو بالضبط ما جعل موسى التوراة يقول في سفر التثنية ٣٢ : ٤١ ـ ٤٣ عن إلهه :

إذا سننتُ سيفي البارق

وأَمْسَكتْ بالقضاء يديّ

أرد نقمة على أضدادي

وأجازي مُبغضيّ

أُسكِرُ سهامي بدمٍ

ويأكل سيفي لحما .

بدم القتلى والسبايا

ومن رؤوس قواد العدو .

تهللوا أيها الأمم شعبه

لأنه ينتقم بدم عبيده .

كما وجب ملاحظة أن إله التوراة لا يعاقب من لم يعبده فحسب ، بل (أني أفتقد . . ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه)[٥٧] .

لقد كان عقاب أو انتقام يهوه متنوع الأشكال ، ولم يقتصر على حرق

أعدائه ،لذا فإنه سَلَّط الأفاعي السامة على بني إسرائيل ،[٥٨] كما يتضح اتساع مخيلته الانتقامية عبر ما ينقله سفر التثنية ٢٦ : ١٤ ـ ٢٢ من القول (لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا . . أسلط عليكم رعبا وسُلاً وحُمَّى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلاً زرعكم فيأكله أعداؤكم . . أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطِّم فخار عِزِّكُم وأُصيِّر سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس . فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم لا تعطي غلتها وأشجار الأرض لا تعطي ثمارها . . أطلق عليكم وحوش الغابة فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرفكم) .

هنا نتوقف عن هذا السرد ونلتفت إلى الرأى التقليدي السائد بخصوص الموضوع ، وذلك وفق ما ورد في الأدبيات المتخصصة التي سيشار إليها ، كلما دعت الحاجة ، في الهوامش .

لقد بحث العديد من علماء التوراة في موضوع الحرب المقدسة في التوراة ،[٥٩] لكنهم حصروا تعاملهم معه من وجهة نظر اجتماعية ـ تاريخية ، والمقصود بذلك أنهم قاموا بتحليل تلك الممارسات ضمن إطار مستوى التطور الاجتماعي لشعوب التوراة في مرحلة تاريخية محددة ، حيث قارنوا بين تلك الممارسات التي أشرنا إليها في المقاطع السابقة وبين الأساليب الحربية لقبائل أخرى في مختلف أصقاع العالم ، وهنا لا خلاف أبدًا مع حقيقة أن الشعوب كانت تمارس ، خلال حروبها ، مثل تلك التصرفات التي بلغت غاية القسوة ، لكن تلك الأعمال كانت تعكس مستوى أو درجة التطور الاجتماعي ـ التاريخي لتلك الأقوام ، ولم تتحوّل إلى طقوس وتعاليم أضحت جزءاً من كتاب مقدس ، كما هو الحال في التوراة ، والمقصود بذلك أن الكهنة وضعوا أرضية دينية ، ليس لتبرير تلك الممارسات الحربية وحسب ، بل إنهم حرّضوا على ممارستها وانتهلوا من التراث الشعبي خرافات وأساطير بما أحاط تعليماتهم بالخصوص بهالة من

القدسية ، وهذه إحدى نقاط اختلافنا مع التيار السائد في علم التوراة ، فتلك السياسة كانت تنفيذاً لإرادة إلههم ، لأنها كانت تصرفات (مملكة كهنة وأُمَّة مُقَدَّسة) (٦٠).

لقد كانت تلك الممارسات تعكس طبيعة ودرجة التطور الاجتماعي ـ التاريخي للأسباط ، لكنها تحوّلت على يد الكهنة ، إلى دعوات وأوامر دينية ملزمة ، وحتى ندرك مدى هذا التأثير الكهنوتي في رسم طبيعة تلك الممارسات ، وجب البحث في جذور تلك الدعاوى عبر تقصي طبيعة إله التوراة يهوه ، وفق رؤى الكهنة أنفسهم ، أي البحث في جذور مباركة الكهنة لتلك الممارسات الحربية ، وتحويلها إلى طقوس مقدسة عبر إعطائها غطاء «الحرب المقدسة» .

المدخل الصحيح للبحث في تلك الجذور يكمن في تحليل طبيعة إله التوراة ، وفق التقليدين ، «الكهنوتي» ، و«المحرر» ، والذي كان بلا شك أيضًا من الكهنة ، هذا سيساعدنا في تناول الموضوع بشموليته ، ويبعدنا عن شرك النظر للأمور من زاوية واحدة ، ويجنّبنا ، كما نأمل ، الإدلاء بأحكام عامة تعسفية وغير علمية .

إن أية قراءة متمعنة للعهد القديم ، تبين أن جذور الديانة التي صاغها الكهنة ، والمعروفة الآن باسم «اليهودية» ـ نسبة إلى محرري العهد القديم من كهنة يهوذا السبي ـ كانت الإيمان بعدة آلهة ، ثم تحولت إلى التوحيد ـ الاقتصاري ، أي الاقتصارية(٦١) ، ومن أدلة تعددية الآلهة ، إشارة سفر التكوين ليهوه كأحد الآلهة ليس إلا ، فالمقطع ٥ :٤ من السفر يقول بصريح العبارة إنه وجد في تلك الأيام «بنو الآلهة» . أي أن إلههم ، كائنًا اسمه ما كان ، لم يكن سوى واحد من عديدين . ويبين سفر التكوين تحديدًا قصة دخوله في صراع مع آلهة أخرى ثانوية ، عُرِفت في التوراة كتجمع عشيري أو قبلي تحت اسم «بني الآلهة» فالإصحاح ٦ :٢-٤ من السفر يقول بصريح العبارة (أن أبناء الآلهة رأوا بنات الناس

أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . . .وبعد ذلك أيضًا دخل بنو الآلهة على بنات الناس وولدن لهم «أولادا» . هم الجبابرة . . . .) .

وفي إشارة رمزية لدخول أجداد بني إسرائيل مرحلة الوحدة القبلية ، أو لنقل ما يصوره العهد القديم على أنه تاريخ الأسباط الأول ، انتهل المحرر من التراث الخرافي قصصًا أو روايات ، لا مجال لاستعراضها في هذا البحث المحدود ، تشير إلى قيام يهوه بالتخلص من باقي الآلهة ليتمكن من فرض سلطانه المطلق ، ويقدم لنا العهد القديم وسفر التكوين تحديدًا ، سردًا لتلك المثيولوجيا في قصص آدم والطوفان التوراتية ، ونحن على قناعة بأن أقسامًا من الأخيرة ، تشرح ، وإن بروايات رمزية ، قيام إله التوراة بإشعال الفتن فيما بين تلك الآلهة بما مكنه من الانتصار عليها مثبتًا سيادته النهائية ، ومما يدعم صحة هذا الفهم للمسألة أن التوراة نفسها تشير في سفر العدد ٢١ :١٤ إلى (كتاب حروب يهوه)[٦٢] ، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة في هذا المجال أن العهد القديم لا يقدم أي سبب لقيام إله التوراة بإثارة الفتن بين الآلهة الأخرى ، بالإضافة إلى أنه لا يحوي أية إشارة صريحة كانت أو مبهمة ، إلى قيام الآلهة الأخرى بأي عمل عدواني استفزه ، وجل ما تقوله هو أن يهوه قرّر التخلص من الآلهة الأخرى ، وهكذا ، فقد كان أحد أوائل تصرفات يهوه شن حروب ضدّ الآلهة الأخرى .

الآن ننتقل خطوة إضافية للتعرّف على طبيعته بما يفسّر جوهر تعاليمه ، وبالتالي ، تصرفاته وممارسات دعاته التي أشرنا إليها آنفًا ، ودون الدخول في تفاصيل قد تطول ، نتذكر أنه تجلى لموسى التوراة نكار ، وربما كان هذا هو ما يفسر القول بأن أول عمل لنوح التوراة بعد انحسار مياه الطوفان ، كان تقديم محرقات لإلهه ، بما جعل الأخير يتنسم رائحة الرضا[٦٣] ، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن العهد القديم يحوي إشارات كثيرة ، مباشرة ، تربط يهوه بالنار بما يدعم أن جذور تلك الديانة ، وفق مفاهيم الكهنة ، كانت التعبد للنار ، فسفر

التكوين ١٩ :٢٤ على سبيل المثال ، يقول إن عقاب يهوه لسكان عمورة وسدوم كان إمطارهم بـ (كبريت ، وهو نار موت من السماء) ، كما يؤكد سفر التثنية ٩ :٣ هذه الطبيعة بالقول (فاعلم اليوم أن يهوه إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة) ، وتتجدد معرفتنا بطبيعته عبر سفر الخروج ١٩ :١٨ الذي يصرح بأن جبل سيني [٦٤] كان (كله يدخن من أجل أن يهوه نزل عليه بالنار) ، كما نقرأ أن يهوه (نار آكلة)[٦٥]، وهذا ما يشرح أن انتقامه أو عقابه كان (. . . . نار . . . . وأكلت المائتين وخمسين رجلا الذين قربوا البخور) [٦٦] ، لذا فإن المزمور ١٨ :٨ يترنم لإله التوراة يهوه قائلا (صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت) ، كما تحوي التوراة مقولات أخرى في هذا الشأن ، لكننا نعتقد أننا قدمنا اقتباسات كافية تشرح طبيعة إله التوراة وفق المفهوم الكهنوتي ، وهنا نسجل قناعتنا بأن إله التوراة يهوه ، وفق رواية الكهنة بالطبع ، هو نار اليمن التي كثيرًا ما أشار إليها الإخباريون العرب .

وانطلاقًا من هذه الطبيعة القاسية لإله التوراة ، أي النار البركانية التي لا تُبقي ولا تَذر ، فمن الطبيعي أن تعليماته تجاه أعدائه أو غرمائه ، كانت لا تقل قسوة أو حسماً ، وتلك كانت تصرفاته ضد غرمائه من الآلهة ، فالبراكين لا تعرف الحلول الوسط ، ولا تميز بين الأخضر واليابس لأنه ليس هناك من أسلوب لوقفها أو للتحكم فيها ، وربما ما يشرح هذا إحاطة كهنة يهوذا لممارسات الأسباط بقدسية وتحويلها إلى تعاليم دينية مقدسة .

لذا نرى أن إله التوراة قام مرة ثانية بإبادة البشرية والتخلص منها تمامًا، فسفر التكوين ٦ :٧ يسجل بهذا الخصوص (فقال يهوه أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأني حزنت أني عملتهم) ، والأمر ذاته ينطبق على مسألة تعامله مع غرماء موسى التوراة حيث ينقل سفر الخروج ٣ :٢١ ـ ٣٢ القول على لسان يهوه (. . . . أنظر جميع العجائب التي جعلتها في يدك وأصنعها قدام فرعون [٦٧] ولكني أشدد قلبه حتى لا يطلق

الشعب .فتقول لفرعون هكذا يقول يهوه : إسرائيل ابني البكر . فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبَيتَ أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر) ، ومن الواضح هنا أن «المحرر» يقول ضمنًا بأن هدف يهوه الرئيسي لم يكن إطلاق أتباعه لأنه يشدد قلب فرعون ، معطيًا بذلك مبرّرًا لقتل ابن الأخير البكر ، الهدف هنا إذن ، ليس كسب أو تحييد المعارضة ، وإنما إبادتها ، وقد يعثر البعض على حجة عدم الإيمان كمبرر لتصرف يهوه هذا ، لكن الرواية المرتبطة بقصة سدوم وعمورة توضح أن الأمر لم يكن كذلك ، فرغم أن سفر التكوين ١٣ :١٣ يقول إن إله التوراة رأى أن (أهل سدوم أشرار وخطاة) ، فإن هذا لم ينطبق عليهم جميعًا ، وهو الأمر الذي جعل أبراهم [٦٨] يحتج على ذلك قائلاً (أفتهلك البار مع الأثيم)[٦٩] ، ورغم قوة حجة الأخير ، لم تنفع توسلاته حيث انتهى الأمر بأن (أمطر يهوه على سدوم وعمورة كبريتا ، وهو نار موت من السماء) ، ورغم قناعتنا المسجلة أعلاه بأن الرواية المرتبطة بهذا العمل ، أي القصص التوراتية عن نوح والطوفان ، مأخوذة من التراث الشعبي الأسطوري والخرافي ، فإنها أُوِّلَت ووُظِّفت من قبل الكهنة بطريقة تحض على إفناء الآخرين ، ليس البشر فحسب ، وإنما كافة المخلوقات أيضًا، باستثناء نوح والتوراة وأولاده .

وإذا ربطنا تصور الكهنة لإلههم ، أي النار البركانية بإحاطة ممارسات الأسباط الحربية ، المشار إليها أعلاه ، بهالة من القدسية ، نرى أن هذا التقليد انتهل من التراث الخرافي لتشجيعها ، فالمسألة ، ليست إذن تبريرًا وحسب لممارسات قبائل كانت في مرحلة تطور اجتماعي بدائي ، وإنما هي تحريض على ممارستها ومباركتها ، وهذه إحدى نقاط خلافنا ، بخصوص هذه المسألة ، مع التيار التقليدي السائد في علم نقد التوراه ، وما دامت تلك طبيعة يهوه ، إله التوراة ، وفق رؤى الكهنة ، فإن تعاليمه المباشرة لم تكن أقل قسوة ، وهنا نعود ، وبالإسهاب المطلوب في مثل هذا العمل ، لاستعراض الأحكام التي أدخلها «المحرر» ، باسم إلهه ، إلى

التوراة ، كتعاليم مقدسة بما يوضح ، على ما نعتقد ،صحة ربطنا لتلك التعاليم بالممارسات ، وهو الأمر الذي افتقدناه ، حتى الآن ، فيما اطلعنا عليه من كتابات أهل الاختصاص الأوروبيين .

وتصل هذه القسوة إلى ذروة جديدة بالأحكام الاجتماعية التي تنسب له ، فلم يقض يهوه بقتل القاتل فحسب ، [٧٠] بل إنه يحرض على رفض الفدية ،[٧١] ثم تعدد التوراة أحكام يهوه لموسى على النحو التالي :

- (. . من ضرب أباه يقتل قتلا . . . . ومن سرق إنسانا وباعه أو وُجِد في يده يقتل قتلا . . . . ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلا) [٧٢] .

- من (اضجع مع بهيمة يقتل قتلا) [٧٣] .

- (لا تدع ساحرة تعيش) [٧٤] .

- (من ذبح لآلهة غير يهوه وحده يهلك) [٧٥] .

- أما عقاب المرتد فهو الرجم حتى الموت[٧٦] لذا أمر يهوه بني لاوي عبر موسى التوراة (هكذا قال يهوه إله إسرائيل ، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه . . . واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه) ،[٧٧] وإن (سلكتم معي بالخلاف ، فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة أضعاف خطاياكم) ، [٧٨] أما أسلوب التأديب فهو (تأكلون لحم بنيكم ولحم بناتكم تأكلون . . . وألقي جثثكم على جثث أصنامكم . . . . وأجرد وراءكم السيف)[٧٩] .

- ومن يشتم يهوه فعقابه أيضا الرجم حتى الموت [٨٠] .

- والغريب الذي يقترب من خيمة الاجتماع فيقتل أيضا [٨١] .

- والموت أيضا مصير من يعمل يوم السبت [٨٢] .

- والرجل الذي يعمل بطغيان فلا يسمع للكاهن الواقف هناك ليخدم يهوه

إلهك أو للقاضي ، يُقتل ذلك الرجل [٨٣].

ـ أما الابن الغير مطيع لقول والديه فوجب رجمه حتى الموت [٨٤].

وإذا وُجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان [٨٥] والمقصود هنا الزنا .

ـ والمغتَصِب والمغتَصَبَة التي لا تقاوم [٨٦].

ـ كما يسري هذا القضاء على الحيوان أيضًا لأن سفر الخروج ٢١ :٢٨ يأمر بأنه (. . . إذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه) ، وحكم القتل يسري أيضًا على الشخص صاحب البهيمة لأن المقطع التالي يقول (ولكن إن كان ثورا نطاحا من قبل . . . .فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل) .

لقد درس علماء التوراة هذه التعاليم ،لكنهم تجاهلوا ، كما نرى ، نقطة أساسية ألا وهي أن هذه التعاليم كهنوتية ، ولا تمت إلى دعوات أنبياء بني إسرائيل ، ونقصد بذلك تجاهل حقيقة أن هذه التعاليم والتعليقات والطقوس بدأت ، في مرحلة محددة ليست موضوع البحث ، تتحول ، على يد الكهنة ، إلى ديانة جديدة ، هي ما يعرف الآن باليهودية ، وتنمو بين الأسباط ، وفي أحضان «اليهوية» ـ نسبة إلى إله التوراة يهوه ، الذي ذكره الأنبياء بالاسم ـ وهو الاسم الذي أطلقه على تعاليم ، أو بالأحرى ، على رسالات بني إسرائيل التي لم تعرف التوراة اسمًا لها ، أي أن اليهودية ليست تعاليم الأنبياء كما نجدها في العديد من الأسفار التي تحمل أسماءهم ، وإنما هي توجيهات وطقوس كانت تتطور بشكل موازٍ لرسالة الأنبياء التي كانت قائمة على التوحيد المطلق والمجرَّد ، أي أن اليهودية تيار ديني انبثق ،على يد الكهنة ، عن ديانة بني إسرائيل التوحيدية المجردة التي دعا إليها الأنبياء ، وهذه النقطة الأساسية لمقالنا ، علمًا بأن القرآن

الكريم فرق بين الطرفين بشكل واضح لا لبس فيه ، وهو الأمر الذي لم يعره البحاثة العرب ، فيما اطلعنا عليه من أعمال منشورة ، الاهتمام الضروري .

ولإثبات التباين ، بل والتعارض ، بين دعوات الأنبياء من جهة ، وبين تعاليم كهنة يهوذا ، لا بد من العودة إلى العهد القديم ، وتقديم إثباتات واضحة منه ، تثبت أن أنبياء بني إسرائيل ، لم يقفوا ضد سياسات وممارسات الكهنة الداخلية ، وتجاه الشعوب الأخرى ، وحسب ، وإنما أيضًا ضد الكهنة والكهنوتية بحدّ ذاتها بما يثبت وجهة نظرنا بخصوص المسألة .

هناك حقيقة معروفة لكل باحث في التوراة وهي أن أنبياء بني إسرائيل عارضوا ، أو على الأقل لم يقفوا إلى جانب تطور الكهنوتية ، أفرادًا أو مؤسسات ، أو لنقل إن العهد القديم لا يحوي أية مقولة منسوبة لأي من أولئك الأنبياء تؤيد ذلك ، كما أن التوراة لا تحوي أية مقولة منسوبة لأي من أنبياء يهوذا أو بني إسرائيل ، تطالب أو حتى تبارك أيًا من الكهنة ، وهذه أيضًا حقيقة معروفة ولا جدال عليها بين أهل الاختصاص ، فما من نبي أعار أية أهمية لما يسمى بالهيكل ، أي مركزة الشعائر والطقوس الدينية الواقعة تحت سيطرة الكهنة والتي كانت محط دعم من ملوك يهوذا وإسرائيل ، وهذا دليل ، في رأينا على عدم اعترافهم بالكهنة الذين عبثوا بالتعاليم اليهوية التوحيدية ، وأضحوا طبقة فوق المجتمع ، لا تعمل كوسيط بين البشر والخالق ، بل كحاجز يمنع البشر من الاتصال المباشر بمعبودهم ،[٨٧] كما لا يحوي العهد القديم معرفة أي من أنبيائه بأن يهوه كان نارا ، ولا توجد أية إشارة من قبلهم إلى الآباء الأولين ، مثل إبراهيم ويعقوب وغيره ، بل إنهم لا يشيرون أبدًا إلى موسى الذي تصفه التوراة بأنه (لم يقم نبي «في إسرائيل ـ ز . م» بعده) [٨٨] ،كما لا تحوي التوراة أية إشارة منسوبة إلى أي من الأنبياء تطالب ، أو حتى تبارك الطقوس التي فرضها الكهنة ، ومنها تقديم المحرقات والضحايا ، الخ ، ونجد تأييدًا لذلك في القول المنسوب لنبي

التوراة ميخا (القرن الثامن ق . م) في الإصحاح السادس ٦ ـ ٨ من السفر الذي يحمل اسمه ، وهو :

بم أتقدم إلى يهوه

وأنحني للإله العليّ

هل أتقدم بمحرقات

بعجول أبناء سنة

هل يُسَر يهوه بألوف الكباش

بربوات أنهار زيت

هل أعطي بكري عن معصيتي

ثمرة جسدي عن خطيَّة نفسي

قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح

وماذا يطلبه منك يهوه

ألا تصنع الحق

وتحب الرحمة

وتسلك متواضعا مع إلهك .

ويتضح من هذا الابتهال أو الصلاة [٨٩] ، أن ميخا يعترض على العطايا من مذبوحات وزيوت ، الخ ، والتي كانت تقدم إلى الكهنة بالطبع .

أما بخصوص الموقف من الممارسات القتالية تجاه الشعوب والأقوام الأخرى ، فنجد أن التوراة تحوي مقولات نبوية عديدة تدين الكهنة وسياساتهم بشكل مباشر ، وبتعبيرات غاية في الصراحة والصرامة ، فعلى سبيل المثال ، ينقل

العهد القديم قول نبي التوراة عاموس (ويل للذين يشتهون يوم يهوه[٩٠] لماذا لكم يوم يهوه . هو ظلام لا نور) ،[٩١] وينقل عن نبي التوراة هوشع القول في الإصحاح ٦ :٨ من السفر الذي يحمل اسمه القول (جلعاد قرية فاعلي الإثم مدوسة بالدم . وكما يكمن لصوص لإنسان ، كذلك زمرة الكهنة يقتلون نحو شكيم) ، كما أن كلمات النبي ارميا (أيضا في أذيالك وجد دم نفوس المساكين الأبرياء) كانت موجهة ضد الكهنة وملوك يهوذا وإسرائيل ، ونقرأ أيضا (في ذلك الزمان يقول يهوه يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء[٩٢] ... ويبسطونها للشمس وللقمر . . . لا تُجمع ولا تُدفن بل تكون مزبلة على وجه الأرض) ،[٩٣] وينسب للنبي ميخا قوله (اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل . . . الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم . رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يُعَلِّمون بالأجرة وأنبياؤها يُعَرِّفون بالفضة . . .)[٩٤].

هذه وغيرها من المقولات المنسوبة لأنبياء بني إسرائيل توضح أنهم حاولوا وقف تأثير الكهنة ، لكنهم فشلوا تمامًا ، وهو ما يشرح سبب تعددية الأنبياء بينهم ، فلو أن أيا منهم تمكن من توسيع التعاليم اليهوية الأصلية ، لما ظهرت الحاجة لظهور نبي جديد ، بين بني إسرائيل ، من حين لآخر .

لكن تعاليم الكهنة انتصرت في نهاية المطاف ، ووصلت إلى ذروة نجاحها بعد قضاء الفرس على الدولة البابلية الثانية وتعاطفهم ، أو توظيفهم بالأحرى ، لمن رَضِيَ من الأقوام المقهورة أو أعيانها ، في تثبيت سلطانهم على الأراضي التي خضعت لهم ، ومما لا شك فيه أن كهنة يهوذا وأتباعهم قبلوا هذا الدور ، حيث تحوي التوراة مديحًا غير قليل للفرس ، بل إنها تضم مقولة أشرنا إليها آنفًا ، تبشر بالإمبراطور الفارسي كالمسيح المنتظر ، ومن المعروف أن الكهنة أضافوا أعيادًا جديدة ، ذات أصل فارسي ، إلى مجموع الأعياد المفروضة على أتباعهم ؛ وهذه أيضًا نقطة لا خلاف عليها أبدًا ، وفي هذا الوقت بالتحديد ، أي في ظل سيطرة

الفرس على كامل المشرق العربي ، وصلت التعاليم الكهنوتية إلى ذروتها بالشخصين عزرا ونحميا ، ورغم أن معظم أهل الاختصاص يشكون في الصحة التاريخية لوجود عزرا ، الذي لا يشار إليه في التوراة كنبي بل ككاهن ، تبقى هذه المسألة جانبية بالنسبة لعملنا ، لأن البحث موجه نحو التعاليم ، وليس الأشخاص ، ومن الجدير بالذكر هنا أن القرآن الكريم يذكر اسمه بصيغة التصغير التحقيرية ، أي عُزَيْر ، إذن ، وبغض النظر عن مسألة تاريخية عزرا ، تبقى حقيقة أنه هو مؤسس اليهودية كما نعرفها حاليا ، ومن الجدير بالذكر أن العهد القديم يعيد أصول الأخير إلى الكهنة من بيت هارون ، ويسجل اسمه الكامل إلى الجد الخامس عشر (كذا) ، ووفق ما يرد في السفر ، فقد سُمح لعزرا بالذهاب إلى أورشليم لبناء هيكل حيث توجه إلى هناك ، على ما يروى عنه ، مع مجموعة من أتباعه في موكب يشابه في وصفه موكب خروج موسى من مصرييم ، ثم استلم موقع الكاهن الأعظم لبني ملته ، ويقول الإصحاح الثامن من سفر نحميا إن عزرا تلا على يهوذيي السبي الملتئمين في اجتماع حاشد بأورشليم سفر شريعة موسى ، ويعتبر هذا العمل ذا مغزى لأنه إدخال لقوانين التثنويين الذي تم إنجازه في بابل ، ولأنه أضحى قانونًا مُلزِمًا للديانة اليهوذية أو اليهودية ، وهنا نعود للتذكير بأن القرآن الكريم يفرق ، بشكل حاسم بين بني إسرائيل ، أو بعض منهم ـ (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) ـ سورة الجاثية/ الآية ١٦ ـ وبين اليهود ، (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ـ سورة المائدة/ آية ٨٢ ـ وهذا أمر غاية في الأهمية لأنه لا توجد أية إشارة في القرآن الكريم ولا في السيرة ولا في أي من كتابات الإخباريين العرب المرتبطة بالموضوع ترفض هذا القول مما يثبت ، برأينا ، أنها كانت مسألة معروفة ولاجدال عليها حينئذ[٩٥].

أما نحميا ، والذي لا تصفه التوراة بأنه نبي أو كاهن ، فقد شدّد بدوره على العقلية الاقتصارية والانعزالية بتعاليم تنقل الأسفار المتأخرة ، أي العائد أحداثها

إلى ما بعد السبي ، بعضًا منها ، وحيث إنه لا مجال هنا للتعامل مع مسألة التمايز «العرقي» للأسباط ، أي الكنعاني ، والآرامي ، نسجل قناعتنا بأن الكهنة كانوا أقلية آرامية ضمن محيط كنعاني ، بما أشعرهم أنهم محاصرون عرقيًا وثقافيًا ، في محيط متباين ، وفي المقام الأول ، جعلهم يشعرون بالقلق على مصيرهم كطبقة فوق المجتمع ، وهذا بالضبط ما أدى إلى نشوء الأفكار الانعزالية ، وتحويل رسالات أنبياء التوراة التوحيدية المجردة إلى تعاليم اقتصارية مرتبطة بمقولات الشعب المختار وما إلى ذلك ، عملاً بقول نحميا (في تلك الأيام أيضا رأيت اليهوذيين الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤابيات ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهدوي بل بلسان شعب وشعب . فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناسًا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم) ،[٩٦] . ويبدو أن المحيط اللغوي لأتباع اليهوية كان مناسبًا لكهنة يهوذا الآراميين ، ونقصد بذلك أن اللغة السائدة في ظل سيادة الفرس على مجمل المشرق العربي ، كانت آرامية ، بما سهل من عملية تثبيت سلطة الكهنة وتعاليمهم التي سجلوها ما يسمى بـ «التوراة الشفهية» ، أي «التلمود» ، والتي ما تزال ، حتى يومنا هذا ، المرجع الفقهي لليهودية ، وهذا بالضبط ما يشرح أن «علم نقد التوراة» يسمى هذه الديانة «اليهودية الربانية» ـ نسبة إلى الربانيين ، أي الحاخامات .

لقد وظّف بعض المفكرين الأوروبيين وأهل الاختصاص ، من ناقدي الكنيسة والمسيحية ، النصوص آنفة الذكر ، وغيرها عن «الحرب المقدسة» في صراعهم الفكري مع المؤسسات الدينية في بلادهم ، فالفيلسوف الألماني نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) سجل القول : (إني أدين المسيحية ، إني أرفع ضد الكنيسة المسيحية أكثر الدعاوى إساءة التي يمكن أن تطلق من فم أي ادعاء ، إنها بنظري أعلى درجات الفساد الذي يمكن تصوره . . . .لقد حولت كل ما هو سام إلى شيء

لا قيمة له ، وقلبت كل حقيقة إلى كذبة ، وكل صدق واستقامة إلى نذالة روحية ....)[٩٧] ، وقد أطلق مثل هذه الأحكام فلاسفة آخرون مثل لشتنبرج[٩٨] وغيره ، وفي العصر الحديث ، هناك العديد من العلماء الذين كتبوا مؤلفات هامة ضمن إطار نقد المسيحية والكنيسة ، وعلى رأسهم كارل هاينز دشنر ، أشهر نقاد الكنيسة في العصر الحديث وأوسعهم اطلاعًا ، وهو الذي كتب العديد من المؤلفات عن الموضوع ، توجّهًا بعمله الموسوعي الفذ ، التاريخ الإجرامي للمسيحية ،[٩٩] والذي صدر منه حتى الآن ثلاثة مجلدات تغطي المرحلة الممتدة من العهد القديم وحتى الكنيسة العتيقة ، ولا ننتقص هنا من قيمة إبداعات الأستاذ الألماني ، ولا نناقش حقه المشروع في ممارسة قراءة نقدية للتاريخ ، ولكن الاعتراض يتلخص في عدم تمييزه بين المقولات التي ترددها التوراة على لسان الأنبياء ، وتلك العائدة إلى الكهنة ، فتاريخ البشرية ، وفق معلوماتنا ، لا يعرف أي نبي ظهر بهدف الدعوة إلى القضاء على النفس وتحويل البشر إلى أدوات قمع ، والمسألة هنا ليست دينية ولا هي سياسية ، أو أخلاقية وعظية ، وإنما فلسفية ، ونعني بذلك أن الأنبياء ظهروا برسالات لمحاربة ما كان قائمًا بين من أرسلوا إليهم من فساد ، ودعواتهم كانت لتهذيب النفوس ، وليس لإبادتها ، وباسم الخالق ، مهما كان اسمه ، أما الكيفية التي تم بها تحويل تلك التعاليم إلى طبول حرب وإبادة واحتلال وتسلط وقهر واستعباد واستغلال ، فمسألة أخرى تستحق البحث المستفيض في عمل منفصل .[١٠٠]

إن هؤلاء العلماء ، الذين تعاملوا مع الموضوع من وجهة نظر ، «نقد المسيحية» ، ورغم إسهاماتهم المثيرة وإغنائهم للبحوث التاريخية والاجتماعية المتعلقة بالموضوع ، وقعوا في نفس خطأ علماء التوراة ، ولكن بطريقة معكوسة ، فبينما رسم الأخيرون لأنفسهم خطوطًا لم يحاولوا ، أو لنقل ، لم يتمكنوا من تخطيها ، سمح الطرف الأول لنفسه بعدم التعمق في البحث عما هو أصيل وعما

هو دخيل في المرجع مما أدى إلى الإدلاء بأحكام قاطعة وتعسفية ، ونعني بذلك أنهم اعتبروا أن تلك التعليمات هي جوهر ديانة بني إسرائيل المندثرة ، أي عدم التفريق بين دعوات الأنبياء التوحيدية المجردة ، وبين تعاليم الكهنة ، لكننا لا نوافق على هذه الرؤية الأحادية ، لأسباب عديدة ، منها أن الباحث في التوراة ملزم بالتمييز بين ما هو دخيل وما هو أصلي في التعليمات ، أي بين دعوات الأنبياء التوحيدية المجردة وبين تعاليم الكهنة الاقتصارية ، أما الدخيل ، فهو التعليمات والتعليقات التي كثيرًا ما تتدخل في النص ، والتي تسللت إليه عبر «المحرر» الكهنوتي ، وهذا بالضبط ما يشرح معارضة الأنبياء ، كما هي مسجلة في التوارة ، للكهنة وتعاليمهم ، وهو الأمر الذي أثبتناه آنفا ، والأمر ذاته ينطبق على الصفات الملحقة بإله التوراة يهوه ، ومن الأمور الجديرة حقا بالملاحظة أن نصوص العهد القديم تبين أن لا نبي من أنبياء بني إسرائيل بارك أية حرب ، هجومية كانت أو دفاعية ، بل إنها لا تحوي أية مقولة منسوبة لأي منهم تدعو لمثل هذه الحروب ، وإذا تناولنا المسألة من وجهة نظر خلقية بحتة ، فإنه من الطبيعي أن لا نوافق على أن دعوات القتل والإبادة وحرق البشر وبقر بطون الحوامل ، الخ ، يمكن أن تصدر عن إله ، لأن رسالة الأنبياء أيا كانوا ، هي دعوة لصقل وتهذيب النفوس .

لقد تبيّن لنا الآن أن منهجية «التقاليد» في «علم نقد العهد القديم» تمكنِ ، إن قرئت بتجرد من الأحكام المسبقة ، من تمييز تعاليم الكهنة ، وعلى رأسها تلك المرتبطة بموضوع المقال ، عن دعوات الأنبياء ، ويمكن لأي دارس أو باحث أن يتأكد من هذه المسألة بقراءة أسفار العهد القديم التي تحمل أسماء أولئك الأنبياء ، وقد يرى البعض أن تمييز تعاليم الكهنة عن رديفها العائد لأنبياء بني إسرائيل ـ وفق رواية التوراة ـ ينطلق من دعوات سياسية ومواعظ أخلاقية ودعوات للعودة إلى التعاليم الأصلية! لذا نكرر هنا أن عملنا هذا تاريخي فلسفي ، ومرتبط بمسألة محددة هي «الحرب المقدسة» في التوراة ، وليس أكثر أو أبعد من ذلك ،

ونعني بذلك أن اليهودية والمسيحية تتعاملان مع العهد القديم كوحدة واحدة، ولا تفرق بين المكونات .

ولا مناص هنا من تسجيل ملاحظة بخصوص كل من قرأنا له عملاً عن التوراة من البحاثة العرب ، ألا وهي عدم التمييز بين إسرائيل الذين كانوا تجمّعًا قبليًا اندثر ، وبين اليهود الذين هم تجمع ديني وليس أكثر من ذلك ،[١٠١] فعلى سبيل المثال ، نجد في المؤلف الموسوعي الهام الذي كتبه الأستاذ الراحل جواد علي ، خلطًا بين اليهود و «العبرانيين» وبني إسرائيل ، حيث يتشكل الانطباع بترادف المصطلحات أو الأسماء الثلاثة ، بالنسبة للكاتب الكبير .[١٠٢]

كما أن العديد من العلماء الأوروبيين يخلطون عمدًا بين المصطلحين ، فالباحث ج . نيوباي [١٠٣] يسجل أن القرآن الكريم يذكر في سورة البقرة ـ الآية ٥٠ ـ أن الله شق البحر أمام اليهود لينجيهم من فرعون ، وواقع الأمر ، أن الآية آنفة الذكر لا تذكر اليهود على الإطلاق ، هذا فضلاً عن حقيقة أن القرآن الكريم لا يربط أبداً بين اليهود من جهة ، وموسى أو بني إسرائيل من جهة أخرى ، وكان الأجدر بالمؤلِّف الالتزام بهذه الحقيقة ، إن هذا الخلط المتعمد يبين مدى تساهل الكثيرين من المستعربين تجاه حقائق علمية مبدئية ، ويقودهم لتحريف المصادر لتناسب استنتاجاتهم المُعَدَّة سلفًا ، وأيضًا لتضليل وخداع القارىء غير المتخصص .

لقد أوضحنا ، في قسم سابق من المقال ، اعتراضاتنا على استنتاجات بعض علماء التوراة وناقدي الكنيسة بسبب عدم تعاملهم مع النصوص بالتمييز المطلوب ، وخارج الإطار التاريخي ـ الاجتماعي الذي تتعلق به ، ونقصد بذلك أن قرع طبول الحرب ودعوات إبادة الشعوب الأخرى ، رغم ورودها في التوراة ، لا يمكن اعتبارها جزءاً من التعاليم اليهوية ، وبالطبع دون أن يتناقض ذلك مع حقيقة أنها تشكل جزءًا لا يتجزأ من تعاليم اليهودية ، وهنا نرى ضرورة التقدم خطوة

إضافية للتعرف على هوية تلك الأسباط مما يسهل ، كما نرى ، من إعادة قراءة مجمل تاريخ المشرق العربي ، وهذا هو الهدف الأبعد لإسهاماتنا كافة .

يتّفق علماء التوراة على أن الأسباط كانوا قبل تشكّلهم في مملكة ، مجموعة من القبائل المتنقلة ، توصف بأنها (عبرية) حيث رغب البعض أن يعرفهم بأنهم هم الخابيرو أو العافيرو الذين ورد ذكرهم في بعض النصوص العائدة إلى بعض ممالك المشرق العربي القديمة ، أي اعتبار المصطلح «عبري» اسم جنس ، وحيث إن العهد القديم لا يصف لغة التوراة بأنها عبرية ، وهو أمر لافت للنظر ، فمن الواضح أن بعض محرري التوراة لم يعتبروا أن المصطلح «عبري / عبريين» اسم شعب أو قوم ، ورغم أن التيار السائد حاليًا يناقض ذلك ، علينا قراءة النصوص ذات العلاقة ، بلغتها الأصلية ، بعيدًا عن المفاهيم السائدة وتأثير الدعايات السياسية أو المقولات اللاعلمية .

سنباشر تحرّينا عن هوية الأسباط بلفت انتباه القارىء إلى حقيقة معروفة لكل متخصص ، وهي أن العهد القديم ، سواء في نصه الأصلي ، أو في أي ترجمة من الترجمات ، لا يعرف أي ملك عبري أو مملكة عبرية ، ولا يخاطب أي أحد بأنه عبري ، لا في التوراة ولا في الأبوكريفا ، كما لا يوجد أي مقطع في التوراة يتحدث عن (بني عابر) أو (أولاد عابر) كمجموعة إثنية مميزة ، ولا تعرف التوراة أي بطل تاريخي اسمه عابر ، ولا يوجد أي ذكر للغة عبرية ،[١٠٤] كما يلاحظ عدم احتواء التوراة لأي نص أو موعظة بعد قيام المملكة في إسرائيل ، منسوبة لنبي تعكس الافتخار بوعي وطني بالانتماء إلى إبراهيم[١٠٥] .

وقد اتضح لنا ، فيما سبق من المقال ، أن العهد القديم لا يعرف لغة الأسباط بالاسم عبراني/عبرانية ، بل يشير إليها وبشكل عرضي على أنها كنعانية ؛ في النص الأصلي «سفت كنعن»[١٠٦] ، مما يقدّم دليلاً إضافيًا يثبت أن المفردة «عبري» لم تعن للراوي اسم جنس ، ورغم أن التوراة تصف أبرام ـ المعرف

دوما بأنه (إبراهيم) في سفر التكوين ١٤ :١٣ بأنه عبري ، لكنه وجب لفت الانتباه إلى أن هذه الصفة لا ترد سوى هناك ، وليس في أي قسم آخر من التوراة ، وقد فهم أن المقصود انتماؤه إلى شعب عرف جداً أعلى باسم (عابر) ، لكن هذا غير صحيح إطلاقًا ، ذلك أن ما يسمى (قوائم الأجداد) أو (الآباء الأولين) المسردة في سفر التكوين تحديدًا ، تتناقض بشكل صارخ مع بعضها البعض مما يثبت أنها غير أصلية وأضيفت إلى التوراة من قبل «المحرر» الكهنوتي ، أيضًا في محاولة لإثبات أصالته «العرقية» ،[١٠٧] وربما أيضا للتمويه على القارىء بأن المقصود هنا شعب أو قوم بالاسم «عبري» ، وقد كتب الكثير من أهل الاختصاص عن المسألة في محاولة لفهم المقصود بالمفردة «عبري» ، إلا أنهم لم يتوصّلوا ، بسبب أحكامهم المسبقة ، إلى نتيجة موحدة [١٠٨] ، وتفاديًا لإسهاب قد يطول ويعقد المسألة في ذهن القارىء بدًلا من تبسيطها ، نقول بوجود ثلاث اتجاهات تقليدية رئيسة ترى أن المقصود «اسم جنس» ، «عابرين» ، و«الطرف الآخر» [١٠٩].

إن التعرف على هوية الأسباط وحلّ هذا الاختلاف القائم بين أهل الاختصاص لا يمكن التوصل إليه بالانحياز إلى هذا الرأي أو ذاك ، ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة عبر الاقتراع على أي منهما ، ولكن بالبحث عن معنى المفردة عبر تحليل نصوص محددة ترد فيها المفردة ، وبالاستعانة ، كلما دعت الحاجة ، باللغات «السامية» وعلى رأسها بالطبع العربية[١١٠].

إن الاجتهاد القائل بأن النص (أبرام العبري) يشير إلى اسم جنس غير صحيح لأسباب عديدة ، أهمها أنه رغم ورود الاسم (أبرام/ابراهيم) عشرات المرات في العهد القديم ، وفي سفر التكوين تحديدًا ، فتلك هي المرة الوحيدة التي يوصف فيها بأنه «عبري» ، وقد أشرنا آنفًا إلى أن بعض أهل الاختصاص لا يقبلون بهذا الفهم ، ويفضلون التفسير «أبرام المتنقل/أبرام العابر» وذلك عملاً بمفهوم نسخة السبعونية [١١١] . إلا أننا لا نوافق أن هذا هو المقصود في هذه

الحالة تحديدًا ، لأن النص الذي يوسم فيه أبرام بأنه «عبري» يرد بعد القول بانتقاله من حالة التنقل إلى الاستقرار ، فالإصحاح ١٣ :١٢ و١٨ من سفر التكوين الذي يقول بأن أبرام سكن في كنعان ، بالقرب من حبرون ، حيث بنى مذبحًا لإلهه هناك ، يسبق وصفه بأنه عبري ، والمسجل في سفر التكوين ١٤ :١٣ ، ورغم أن أهل الاختصاص لاحظوا هذه التناقضات ، فإنهم عزوها إلى انتماء النصوص إلى تقاليد مختلفة ، وانطلاقًا من قناعتنا بأن هذا الشرح ناتج عن سوء فهم علماء التوراة لمعاني المفردة ، نستعين بالعربية لنرى إن كانت ستساعدنا في فهم المقصود .

تقول المعاجم العربية أن «العُبْرُ من الناس» هم (القُلف) ، واحدهم «عبور» ، وقيل أيضا «غلام مُعْبَرٌ» هو (من كاد يحتلم ولم يختن بعد ، وقيل هو الذي لم يُختن ، قارب الاحتلام أو لم يقارب) ، وعندما نأخذ بعين الاعتبار أن التوراة تربط العهد الأبدي بين ألوهيم ـ في الترجمة العربية (الله) ـ وبين أبرام الذي أضحى اسمه إبراهيم ، بشرط واحد فقط هو ختن الذكور ، فمن الواضح أن المقصود بـ «العبري» هنا (أبرام العَبُور) ـ أي (القلف) ، ومما يعزز اقتناعنا بأن هذا ما قصده العهد القديم ، تسجيلها للمصطلح «أبرام العبري» قبيل النص الذي يسجل أمر إله التوراة بفرض طقس الختان الوارد في الإصحاح ١٧ :١٠ ، ولإدراك الأهمية المعطاة في التوراة لهذا الطقس ، الذي هو علامة العهد بين الطرفين ، أي بين أبرام وإلهه ، نستأذن القارىء بتسجيل النص ذي العلاقة كما هو وارد في الترجمة العربية التقليدية ، وهو التالي : (وقال ألوهيم لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك ، يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بيني وبينكم . . . كل ذكر في أجيالكم . . . وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدي) ، [١١٢] كما أن نعت أبرام بأنه (قلف) ، يأتي قبل وصف سفر التكوين ١٥ : ٢ بأنه (عقيم) ، وقبل

وعد إله التوراة له بأن نسله سيكون مثل نجوم السماء عددًا ـ سفر التكوين ١٥ : ٥ ، برأينا أن هدف وصف أبرام بـ (العبري) هنا تحديدًا ،ما هو إلا محاولة ، من قبل الراوي ، لشرح معنى المفردة لأنه لا يوجد أي سبب ، لغوي أو غير ذلك ، لإدخالها في النص ، ونحن نرى في هذه الرواية ميثولوجيا أقحمت في التوراة لشرح اعتقاد قديم ساد بين الأعراب بأن ختان الذكور شرط مسبق لجعلهم قادرين على الإنجاب ، ولا شك بأنه مرتبط بفض غشاء البكارة عند الإناث ، وهنا نستذكر الخرافتين الواردتين عن هذه المسألة حيث ترد الأولى في سفر التكوين ١٥ بالارتباط مع أبرام/إبراهيم ، بينما تسجل الثانية بالارتباط مع موسى التوراة في سفر الخروج ٤ : ٢٤ ـ ٢٦ ، والتي أشرنا إليها في قسم سابق من المقال .

كما نجد دعمًا لفهمنا هذا عبر استشارة نصوص أخرى مرتبطة بموسى التوراة ، وترد في سفر الخروج ١ : ١٥ ـ ٢ : ٢٢ تحديدًا ،فسفر الخروج ٢ : ٦ ـ ٧ يوظف المفردة بصيغة (من أولاد العَبرِين) ، أو من (أولاد العُبَرَة) ، وليس (من أولاد العبريين) كما هو وارد في النسخة العربية المترجمة ، ويليها في سفر الخروج ٢ : ١١ التعبير (رجل عبري) ، ومن المهم هنا ملاحظة أن التعبير «عبري» ـ بصيغة النسبة إلى «عبر» ـ موظف من قبل آخرين ، ولنذكر أن العربي يأنف من صفة «أعرابي» أي بدوي ، ومن أجل فهم المعنى المقصود في هذه الحالة ،من الضروري استعراض الظرف الذي استخدم فيه المصطلح .

تقول الرواية ، إن ابنة فرعون وجدت رضيعًا يبكي مخبأ في سفط عندما ذهبت للاستحمام ، وتعرفت عليه بأنه غير مصرييمي ـ نسبة إلى مصرييم التوراة ـ فور فتحها له ، لأنها تنقل على لسانها القول (هذا من أولاد العبرين) ، وبسبب ما رأيناه من تعدد معاني المفردة «عبر» في اللغة العربية ولغة التوراة أيضًا ، قد يتحيّر المرء من المعنى المقصود ، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن قدماء المصريين كانوا يمارسون طقس ختان الذكور ، وأن أمر يهوه لموسى كائنًا من كان ، بختن

أتباعه جاء بعد فراره وجماعته من مصرييم ، فمن الواضح أن المقصود هنا (هذا من أولاد القلف) .

وهناك دليل آخر ، من التوراة ، يدعم صحة فهمنا لمعنى التعبير كما هو وارد في الرواية السابقة ، ويتعلق بنصوص حروب أول ملوك إسرائيل المسمى شاوُل وابنه يوناثان ، ضد الفَلَسَة أو الفلستيين .

يقول سفر صموئيل الأول ١٣ : ٣ و ٦ـ ٧ ، وفق الترجمة العربية التقليدية : (وضرب يوناثان نصب الفلستيين الذي في جبع فسمع الفلستيون وضرب شاوُل بالبوق في جميع الأرض قائلاً ليسمع العبريون) ، وقد أثار هذا المقطع ، وما يزال ، حيرة ونقاشًا بين أهل الاختصاص لأنه يثبت أن العهد القديم يُفَرِّق بوضوح بين إسرائيل من جهة ، و«العبريين» من جهة أخرى ، هذا فيما لو فهم أن المقصود بالأخيرين نفس المجموعة ، كما أن سفر صموئيل الأول ١٤ : ٢١ و ١٣ : ٦ ـ ٧ ، يميز من جديد بين «العبريون» الذين فُهِم أن جزءاً منهم فرّ إلى أرض جاد وجلعاد ، و«الشعب» الذي اختبأ في المغارات والصخور ، الخ ، وفي مواجهة هذا التناقض ، اعتبر بعض أهل الاختصاص وجود فساد في النص الأصلي مما جعلهم يترجمون المقطع في النسخ الإنجليزية وغيرها ليضحي (يوناثان هزم نصب الفلستيين الذين في جبع ، وسمع الفلستيون أن العبريين تمردوا ، ونفخ شاوُل بالبوق في كل الأرض) ، أي أنهم استبدلوا بالمفردة <ويشمعو> الواردة في النص التوراتي بمعنى (وسمع) ، المفردة <وفشعو> ، أي (وتمردوا) ، متبنين بذلك ، وإن جزئيًا ، نص «السبعونية» ، ومن الجدير بالذكر أن مترجمي ومدققي الأخيرة لم يفهموا المقطع بتاتًا مما جعلهم يغيرون المفردة <هعبريم> الواردة في المقطع بمعنى ، «العبرين/العبرانيين» ، إلى <هعبديم> ، بمعنى (العبيد) ، واقع الأمر أن التحليل الدقيق للمقطع يظهر أن الفساد ليس في النص وإنما في الأدوات اللغوية التي وظفت لتحليله ، وهذا برهاننا .

يقول المقطع بشكل واضح (وضرب يوناثان نصب فلستيم الذي في جبع فسمع فلستيم وضرب شاوُل بالبوق في جميع الأرض قائلاً ليسمع العبرِين) ، برأينا أن الجملة صحيحة ، وأن المقصود بالعبرين ، أو العبران ، لا شعب ولا أعراب ، وإنما فلستيم ، [١١٣] الذين يوصفون بأنهم «القلف» ، والمقصود بالجملة أنه عندما سمع شاوُل بأن ابنه المحبوب يوناثان تمكن من ضرب نصب فلستيم ، طرب للأمر وانتشى مما جعله يأمر بالنفخ في البوق في المنطقة مبشّرًا بهذا الانتصار ، ومضيفًا (ليسمع القلف) ، أي تعبير تحقيري لا يخلو من الشماتة بفلستيم ، أي أن الترجمة الصحيحة للمقطع يجب أن تكون على النحو التالي : (وضرب يوناثان نصب «مملكة» فلستيم الذي في جبع فسمع «سكان» فلستيم ، وأمر شاوُل بالنفخ في البوق في كافة أنحاء الأرض وقال ليسمع القلف) ، ومن المعروف أن العهد القديم كثيرًا ما يستخدم هذا النعت التحقيري للإشارة للأخيرين بسبب عدم ممارستهم طقس الختان .

أما الإصحاح ١٤ : ٢١ من نفس السفر ، فيسجل وفق الترجمة التقليدية (والعبرانيون «الذين» كانوا مع الفلستيين منذ أمس وما قبله الذين صعدوا معهم إلى المحلة من حواليهم صاروا هم أيضًا مع إسرائيل الذين مع شاوُل ويوناثان) ، ومن المهم الأخذ علمًا بأن «السبعونية» توظف مرة أخرى المفردة (العبيد) ، بدلًا من (العبرين/العبرانيون) ، وقد فُهِم أن المفردة <هيو> الواردة في النص الأصلي هي صيغة الماضي من الفعل <هيه > ، أي (كانوا) ، لكن من الواضح أن النص لا يستقيم بسبب غياب أداة الوصل (الذين) المضافة في الترجمة العربية ، وقد أوِّل النص ليعني أن العبرين الذين كانوا مع بعض فلستين تركوهم ، أي غيّروا من ولائهم وانضموا إلى بعض إسرائيل التابعين لشاول ، وقد لاحظ أهل الاختصاص أن ترجمة <هعبريم > الواردة في النص الأصلي تعني مجموعة عرقية تقود إلى تناقض جديد وصارخ في المفهوم بأن بني إسرائيل هم «العبريون» ، مما جعل

البعض يحاول تقديم تفاسير للخروج من المأزق ، ومن ذلك القول بأن إسرائيل انقسمت فيما بينها ، فبينما قبل جزء منهم بحكم فلستيم ، رفضها آخرون ، ووقف طرف ثالث محايدًا ، لكن هذا التفسير ضعيف لأنه لا توجد أية إشارة لمثل هذا الانقسام بين الإسرائيليين التابعين لشاول ، ولو كان قد حصل لما تردد «المحرر» الولع بالتعليقات وإلقاء المواعظ في صب اللعنات على طرف منهم .

أما بخصوص المدرسة الأخرى حول الموضوع ، والتي ترى أن المقصود بالمفردة «عابر» أي متنقل ، فتجد دعمًا لها من ورود المفردة في العهد القديم بهذا المعنى ، كما نجد دعما لذلك عبر استشارة اللغة العربية حيث إن الكلمة (عَبَرَ) ، تعني (التنقل ، المرور) ، و«القطع من مكان إلى آخر» ، ـ أي «المار» ، أما «العبار» ، فهي (الإبل القوية على السير) ، كما نعلم أيضًا أن «الرجل العَبْرُ والعِبْر) هو (الجريء على الأسفار الماضي فيها القوي عليها) ، ويضاف لذلك أن «العُبْرُ» تعني (السحائب التي تسير سيرًا شديدًا) ، ويلاحظ أن هذه المصطلحات أو المفردات ، تحمل مضمون الحركة في معانيها ، كما تقول المعاجم العربية إن «العِبْر» هو (جانب الشيء ، نهرا كان أو واديا أو طريقا أو غيره) ، وهنا ، ولفائدة القراء غير المتخصصين في الموضوع ، نود التذكير بحالة لغوية ، لا مجال للتعامل معها هنا ، تظهر بين العربية ولغات المشرق القديمة ، تسمى على ما نذكر «الإبدال» ،[١١٤] أي قلب موقع الحرف داخل الكلمة مع محافظته على المعنى .

لقد بينا في قسم سابق من العمل أن الأسباط ، وفق رواية العهد القديم ، كانت في حالة تنقل مستمرة ، وعبِّر عن ذلك ، ضمن أمور أخرى ، ووفق رواية الكهنة ، ما يقال عن كون إلههم يهوه روح خفية تسكن صندوقًا خشبيًا ، عرف باسم «تابوت العهد» ، كما أن تصرفاتهم القتالية ، أي النهب وحرق المستوطنات ، الخ ، أمر ملازم للقبائل المتنقلة في مرحلة مبكرة من تطورها الاجتماعي ، وليس لسكان الحضر الذين يحتلون المواقع ويستقرون فيها ، هذه الحقيقة ستساعدنا في

التعرف على المعنى الثاني للمفردة «عبر/عبري» ، والتي نرى أنها وردت في العهد القديم ، أحيانًا ، بمعنى (عرب) ، وهنا نعود مرة أخرى إلى المعاجم العربية لنستشيرها بخصوص معنى الكلمة .

سجّل ابن منظور صاحب «لسان العرب» أن المقصود بالكلمة (عرب) اسم جنس ، ومن المصادر التي لا أفعال لها ، لكن لم يحصل إجماع بين الإخباريين العرب على أصل التسمية ، وقيل أيضا إن «العربي» هو «من نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب ، وإن لم يكن فصيحا» ، كذا! أما الأعرابي «فهو من كان بدويًا صاحب نعجة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث ، سواء كان عربيا أو من مواليهم»! وذهب البعض للقول بأنه إذا قيل للأعرابي يا عربي فرح بذلك وهش له ، والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب له! وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه المعاجم سجلت في فترة متأخرة بعد تأسيس الدولة العربية ـ الإسلامية ، ومن قبل أهل الحَضَر ، نعتقد أن القارئ يتفق معنا بأن أولئك المؤلفين كانوا منحازين إلى سكان المدن ومتحاملين على أهل المدر ، ومن المعروف أن الطرف الأول كان ، وما يزال ، يستخدم هذه الكلمة كنوع من التحقير .

ومن المعروف أيضًا أن النقوش العائدة لبعض الممالك المجاورة لجزيرة العرب وَظَّفت المفردة «عرب» للإشارة إلى سكان جزيرة العرب كأعراب ، وهذا أمر بديهي لأن السكان المستقرين يُنسَبون ويَنتسِبون إلى مدنهم أو إلى الأقاليم التي ينتمون إليها ، ومن المعروف أن العربي يأنف من صفة «الأعرابي» ، الملحقة به تحقيرًا من قبل أهل المدر ، ويرجع ، في عملية انطواء ودفاع شرعية عن النفس ، انتماءه لقبيلته أو عشيرته ، رغم ذلك ، فنحن نعلم أن التعبير الموظف لوصف البدو الرحل هو (عرب) ، ومن ذلك على سبيل المثال عرب السعديين ، عرب التعامرة ، وهي من قبائل فلسطين المحتلة ، كما أن ابن خلدون وظف المفردة «عرب» للدلالة على البدو ،[١١٥] إن هذا الفهم حاسم بالنسبة للبحث لأن العهد القديم لا يشير مطلقًا

إلى أي فرد من أفراد الأسباط إلا بإلحاق انتمائه القبلي ، أو بذكر اسم مدينته أو قريته ، وحيث إننا لاحظنا أن العرب لم تُعَرف نفسها بالاسم إلا بعد الإسلام ،[١١٦] وأنه وُظِّفَ قبل ذلك للدلالة على أهل البادية الرحل أو المتنقلين ، أي كوصف لحالة اجتماعية معينة وليس كاسم جنس ،[١١٧] فهذا يوضح برأينا أن (عرب) و(عبر) ، كانا ، وإلى حدّ ما مازالا مصطلحين مترادفي المعنى في اللغة العربية .

هذا يعني أنه من الصحيح القول بأن المصطلحين (عرب) و(عبر) ، وُظِّفَتَا أيضًا في التوراة للدلالة على معنى واحد ، رغم أنها توظف المصطلح الأول بمعنى (أعراب) ، لكن حيث إن العهد القديم تعرض لعمليات تحرير و«تصحيح» ، لا نهاية لهما ، وهو الأمر الذي لفتنا الانتباه إليه في مطلع المقال ، إضافة لحقيقة عدم معرفة ، وبالتالي غياب رأي التقليد «المحرر» بخصوص أصل المفردة «عبري» ، فمما لا شك فيه أن التلاعب تم أيضًا في هذا المجال ، فالقراءة الدقيقة لبعض مقاطع التوراة توضح توظيفها للمفردة <عبري> فعلاً بمعنى (العابرين) ، ذلك أنها تحوي نصوصًا عديدة تظهر الأسباط في حالة حركة دائمة ، ومن الدلائل الأخرى التي تؤيد وجهة النظر القائلة بأن المصطلح عبري لا يحمل أية طبيعة عرقية هو تكون بني إسرائيل من أشخاص ينتمون لقبائل وعشائر عديدة .

كما نجد دعمًا إضافيًا لوجهة نظرنا في حقيقة أن الإصحاح التاسع من سفر يشوع ، يسجل أن الأسباط لم تحارب سكان جبعون لاعتقادهم بأنهم عابرون ، أي عرب مثلهم ، هذا يعني أن التوراة وظفت المفردة «عبري» للدلالة أحيانًا على الأسباط كبدو رحل أي «عرب» .

وهناك نصوص توراتية أخرى تؤيد صحة فهم أن المفردة «عبر» تعني «عرب» - بمعنى بدو ، أعراب ، وليس كاسم جنس ، ومنها المتعلقة بقصة عن يوسف التوراة ومشكلته مع زوجة رئيس شرطة مصرييم المسجلة في سفر التكوين ٣٩ : ١٤ ، حيث تصفه بأنه (رجل عبري) ، وفي الإصحاح ٣٩ : ١٧ بأنه

(العبد العبري) ، وفي سفر التكوين ٤١ : ١٢ ، (غلام عبري) ، وحتى يسهل فهم ما نقصده نرى أنه من المفيد استعراض تلك الرواية ، كما وردت في العهد القديم .

تقول التوراة إن يوسف بن يعقوب هذا بيع من قبل تُجَّار لرئيس شرطة فرع مصرييم الذي جعل منه خادمًا في منزله ، ويبدو أن زوجة رئيس الشرطة أعجبت بالخادم الجديد الذي كان (حسن الصورة وحسن المنظر) ، ورغبت في مضاجعته ، لكن الأخير استهجن الإساءة لمستخدمه ورد محاولات توددها ، وبعد عدة محاولات فاشلة ، حاولت الزوجة اللعوب إجبار الخادم المسكين على مضاجعتها ، لكنها عندما اكتشفت جدية رفضه ، وفي مواجهة الموقف المحرج الذي توّرطت فيه ، أمسكت بثوبه لاستخدامه كدليل اتهام ، وتبدأ بالتشهير به انتقامًا منه في محاولة للتغطية على فشلها ، وهنا تحديدًا تنقل التوراة وصف الزوجة اللعوب ليوسف التوراة بأنه «عبري» فالإصحاح ٣٩ : ١٤ من السفر ينقل قولها لزوجها مستهجنة ، وعن يوسف مُشَهِّرة : (لقد جاء إلينا برجل عبري ليداعبنا) ـ أي (ليغازلنا أو ليعتدي علينا ، ز.م) ، وفي المرة الثانية ، المسجلة في المقطع ١٧ من نفس الإصحاح ، تنقل التوراة على لسان زوجة رئيس الشرطة تسميتها ليوسف أنه «العبد العبري» وهنا أيضًا بصورة تشهيرية ، ومن الممكن الفهم هنا أن المقصود بالتعبير «العبري» أنه إشارة لأحد القلف ، لكني أستبعد هذا لأن أمر الختان لوالده يعقوب يرد في التوراة ، قبل تسجيل القصة ، مما يعني أن يوسف كان مختونًا قبيل شرائه من قبل رئيس الشرطة هذا ، وكائنًا من كان ، ويضاف لذلك حقيقة إحجام التوراة عن القول بأن يوسف التوراة فَرَّ من مخدع الزوج اللعوب عاريًا ، وبما أن التعبير يأتي على لسان زوجة رئيس الشرطة في معرض التشهير ، فمن الواضح أن المقصود هنا تعبير تحقيري ، أي أن المصطلح الموظف هنا هو وصف بصيغة النسبة إلى (عبر) بمعنى (عربي) ، أي (بدوي) ، متذكرين تحامل أهل الحضر على أهل المدر بتوظيفهم ، حتى يومنا هذا ، صفة «بدوي» كنعت تحقيري وتصغيري ، ويدعم فهمنا هذا أن التوراة تطلق على ثوب يوسف اسم <بجد> والتي لا يوجد لها مرادف في أي لغة من اللغات

«السامية» ،سوى العربية أي (بجاد) ، والذي هو وفق صاحب لسان العرب (كساء مخطط من أكسية الأعراب) ، وهنا نسجل اقتناعنا بأن هدف إقحام هذه القصة في التوراة هو شرح معنى «عبري» .

لكن حيث إن التحليل اللغوي لمقاطع أخرى من العهد القديم يبين أنها لم توظف المفردة «عبر/عبري» بهذا المعنى ، نعود مرة أخرى للغة العربية لاستشارتها بخصوص معان أخرى للمفردة حتى نتأكد من تحديدنا لهوية الأسباط .

تقول المعاجم إن «بنو غبراء» هم (الغرباء ، الصعاليك والمحاويج أي الفقراء) ، أما «المُغَبِّرَة» (فهم قوم يهللون باسم الله تعالى بدعاء وتضرع ، والسبب هوأنهم إذا تناشدوه بالألحان طَربوا فرقصوا وأرهجوا فسموا مُغَبرة لهذا المعنى) .

وبالعودة إلى التوراة نرى أن الإصحاح ٣ : ١٨ من سفر الخروج ينقل على لسان موسى ، ودون ذكر لهارون ، القول لملك مصرييم (كبير آلهة العبريين) ، وليس (إله العبريين) كما يرد في الترجمة التقليدية ، ويورد النص التوراتي القول <ءلهي> ، أي صيغة الجمع من المفردة <ءله> مع حذف حرف الميم اللاحق بسبب حالة الإضافة ، ونحن على اقتناع بأن المقصود هنا «المغبرة» المشار إليهم آنفًا ، ومن الأمور المثيرة للانتباه في هذا المقام أن وصف طقس تعبد المُغَبِّرة يتطابق مع ما تورده التوراة عن رديفهم عند الأسباط ، والمسجلة في سفر صموئيل الثاني ، والتي وردت في المقاطع (٦ : ٥ و ١٤ ـ ٢١) من كتاب كمال الصليبي (حروب داود) ، ص ٤٩ ـ ٥٠ [١١٨]، ولفائدة من لم يتمكن حتى الآن من الاطلاع على المؤلف آنف الذكر ، نذكر الترجمة كما وردت في ذلك المؤلف الفذ :

سفر صموئيل الثاني ٥ : ٦ وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون قدام يهوه بآلات «من» خشب العرعر

وبالقياثير والرباب والدفوف

وبالجنوك والصنوج

٦ : ١٤ كان داود يتخلع أمام يهوه بكل اندفاع كان داود يرتدي صدارا فقط

٦ : ١٥ كان داود وكل بيت إسرائيل صاعدين مع تابوت يهوه بالهتاف وبصوت البوق

بالإضافة لما سبق يجب التذكر بأن سفر اللاويين ٢٥ : ٣٩ ، يحرم استعباد الإسرائيليين بينما تسمح النصوص الواردة في سفر الخروج ٢١ : ٢ ، التثنية ١٥ : ١٢ وارميا ٣ : ٩ ـ ١٤ باستعباد «العبري» لمدة سبع سنوات قابلة للتمديد مدى الحياة ، هذا يبين أنه كان هناك فرق جوهري بين الطرفين في ذهن رواة التوراة .

الاستنتاجات

بهذا نختتم مقالنا بالقول إن العهد القديم يحوي الكثير من الدعوات لشن «حرب مقدسة» ، ضد الشعوب والأقوام التي قاومت زحف الأسباط نحو ما يسمى بأرض الميعاد ،لقد نظر الكهنة من يهوذا ، ـ الذين تواجدوا في بابل تحت سلطة الفرس ، والذين حرّروا و«صحّحوا» ما كان بين أيديهم من قصص وتاريخ وخرافات وأساطير مستقاة من محيطهم الحضاري ، مكتوبة كانت أو شفهية ـ إلى غزوات الأسباط ، الذين كانوا عربًا ـ أي أعرابًا ـ على أنها تعاليم مقدسة ،وقد تناسبت تلك الممارسات الحربية أو القتالية ،لقبائل كانت ما تزال في مرحلة بدائية من التطور الاجتماعي ، مع رؤياهم لطبيعة إلههم الذي ظهر لهم كنار ، أي أن كهنة يهوذا الآراميين ،اغتنموا درجة التطور التاريخي ـ الاجتماعي للأسباط وجعلوا منها تعليمات مقدسة تتناسب مع فهمهم لطبيعة إلههم ،كان اسمه ما

كان ، وفرضوها على أتباعهم ، وقد توسّع الكهنة في البحث عن مبررات لدعم تلك الممارسات حتى باستخدام الخرافات والأساطير ، والتي تتبيّن بسهولة للباحث ، هذا في حالة تحرره من الأحكام المسبقة ، وبشرط تقيده بمنهجية علمية ، قائمة أولاً وقبل كل شيء على قراءة النصوص بلغتها الأصلية .

لكن ما يحويه كتاب اليهودية والمسيحية المقدس من تلك الدعوات والتحريضات ، لم يشكّل ، على الأقل وفق رواية التوراة ، جزءاً من رسالات أنبياء بني إسرائيل ، ومن الصحيح ، وفق اقتناعنا على الأقل ، القول بأن جذور تلك الدعوات الحربية ، ترجع إلى أن الكهنة كانوا أقلية آرامية ، وسط محيط كنعاني اتحدوا معه ، في مرحلة تاريخية معينة ، تحت اسم «كل إسرائيل» ، لقد وقف الأنبياء ، برسالتهم التوحيدية المجردة والمطلقة ، بشكل صريح ضدّ الكهنة والكهنوتية وأيضًا ضد تصرفاتهم ودعواتهم ، إلا أنهم فشلوا ، لأسباب عديدة أهمها أنهم كانوا قد نشطوا وعملوا ، كمعارضة ، ضد ممارسات وسلطة ملوك يهوذا وإسرائيل الذين دعموا الكهنة ، رغم أنهم حاولوا ، في الوقت نفسه ، احتواء أو كسب الأنبياء ، وحيث إن تعاليم الكهنة كانت تنشأ وتتطور ضمن بني إسرائيل ، وحيث إن الكهنة اعتبروا أنفسهم ورثة مجمل التراث الديني والتاريخي ـ الاجتماعي لبني إسرائيل الذين اندثروا كقوم بعد السبي البابلي على أقصى تقدير وتمثّلوا مع محيطهم الحضاري ، فقد كان من الطبيعي أن يقوموا بضم دعوات وكلمات الأنبياء إلى تعاليمهم التي تعرف في التراث العربي ـ الإسلامي باسم «التوراة» ، لكن هذه التعاليم الكهنوتية ، التي تحوّلت إلى ديانة تعرف الآن باسم «اليهودية» والتي نشأت من قلب رسالات الأنبياء التوحيدية وبشكل مواز لها ، ثم أخذت في التطور المستقل عنها ، أضحى لها مؤسساتها وطقوسها الخاصة بها مسجلة في التلمود ، أي أن اليهودية ليست استمرارًا لرسالات أنبياء التوراة ، وإنما منبثقة عنها ، وهذا بالضبط ما يشرح تفريق القرآن الواضح والحاسم بين «اليهود» ، كجامعة دينية ليس إلاّ ،[١١٩] وبين بني إسرائيل الذين كانوا تجمّعًا قبليًا

من العرب البائدة ، وهذه هي نقطة اختلافنا الرئيسة بخصوص هذه المسألة ، مع أهل الاختصاص الأوروبيين العاملين في علم «نقد العهد القديم» ، ونحن على اقتناع بأن دعوات أنبياء بين إسرائيل أو بعضًا منهم على الأقل ، استمرت في الوجود بجزيرة العرب تحت اسم الحنيفية ، أي التوحيد المجرد والمطلق ، ودون أي تأثير أو سلطة لأي كهنة أو وسيط .

الهوامش والمراجع

(١) - Julius Wellausen

(٢) - Prolegomenma zur Geschichte Israels, Leipzig, 1882

(٣) اسم العنوان الأصلي Reste arabische Heidentums ، ونشر عام ١٨٩٧ .

(٤) من الجدير بالذكر أن أتباع الديانة اليهودية لا ينطقون الاسم عندما يقرؤون كتابهم المقدس بلغته الأصلية ، أي الكنعانية . والسبب ، وفق الرأي السائد أن الأسماء لا تعطى إلا لأشخاص ، ولذا يكون من باب التجديف نطق الاسم .

(٥) هناك وجهة نظر محدثة عن مسألة «التقاليد» ، يرى مؤلفها أن «الخماسية» هي نتاج «جامع ، مؤلِّف ـ Collector» اعتمد على روايات شعبية وخياله الشخصي ، ولم يعمل قبل السبي البابلي . راجع :

Whybray, R. N., "The Making of the Pentateuch" - A Metodaological Sbtudy; Journal for the Study of the Old Testament - Supplement Series 52; The University of Sheffield, Sheffield, 1987.

(٦) - Otto Eissfeldt, "Hexateuch-Synopse - Die Erzählung der Fünf Bücher Mose und des Buches Josua mit dem Anfang des Richterbuches" -- IN IHER VIER QUELLEN ZERLEGT UND IN DEUTSCHER ÜBERSETZUNG DARGEBOTEN SAMT EINER IN EINLEITUNG UND ANNMERKUNGEN GEGEBENEN BEGRÜNDUNG; Leipzig, 1922.

(٧) هناك عمل آخر يغطي مجمل العهد القديم ، كُتب بالإنجليزية تحت عنوان The Rainbow Bible ، لكننا لم نتمكن ، حتى الآن ، من الاطلاع عليه وتقييمه .

(٨) كلمة «نقد» التي هي المرادف العربي المترجم للمفردة (critique) ، والمشتقة من الإغريقية (krinein) ، بمعنى «فصل ، تمييز» ، لا تحمل أي معنى سلبي .

(٩) لقد تعاملنا مع هذه المسألة بإسهاب في مؤلفنا «**بنو إسرائيل ـ جغرافية الجذور**» ، دمشق : دار الأهالي ، ١٩٩٥ .

(١٠) للاطلاع على وجهة نظر متخصصة بمقاطع أخرى تتعامل مع المسألة ، انظر :

Schunk, Klaus-Dietrich, "Falsche Richter im Richterbuch"; Prophetic und geschichtliche Wirklichkeit im alten Israel. Festschrift für Siegfried Herrmann zum 65 Geburtstage, Sonderduck, Stuttgart, Köln, 1991, S. 264-369.

(١١) - «Textual criticism ـ النقد النَصّي» أو Lower Criticism

(١٢) النسخة التي نوظفها في مقالنا هي **الكتاب المقدس** ، بيروت : دار الكتاب **المقدس** في الشرق الأوسط ، ١٩٨٦ . هذه النسخة هي طبعة جديدة لترجمة أنجزت في منتصف القرن الماضي .

(١٣) في النص المترجم دوما «الرب» ، وبالإنجليزية (The LORD) ، وبالألمانية (Der HERR) ، وهكذا .

(١٤) - «Higher Critisicm Bm Shgkrv hgjhndod ` Historical Critiscm

(١٥) نحن لا نناقش هنا صحة التاريخ ولا الجغرافيا ، وإنما نحاول توضيح المشاكل المعقدة الناشئة عند تخلي القارىء عن المنهجية العلمية النقدية في التعامل مع النصوص .

(١٦) لقد تركنا الاسم كما هو وارد في النص الأصلي لأن رأينا في مجمل جغرافية التوراة ، وهو ليس موضوع المقال ، مختلف عما نشر حتى الآن ، ولذا وجب التنويه .

(١٧) إشعيا ٤٥ :١ .

(١٨) إننا نستخدم في بحثنا هذا ، كما في الأبحاث الأخرى المرتبطة بالمادة ، النسخة المسجلة باللغة الأصلية ، أي الكنعانية ، والمعروفة باسم BIBLIA HEBRAICA Stuttgartensia ، والصادرة ، كما يوضح الاسم في مدينة شتوتغارت بألمانيا عام ١٩٨٣ .

(١٩) (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م .) .

(٢٠) - The Revised English Bible, Oxford University Press, Cambridge University Press, 1989.

(٢١) هناك ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس صدرت عام ١٩٩٣ عن «جمعية الكتاب المقدس في لبنان» تورد النص على نحو (وأخرج سكانها منها وأجبرهم على العمل . .) . ومن الجدير بالذكر أن مقدمة هذه النسخة تقول حرفيا إن فريق الترجمة (. . تجنب ، عند الضرورة ، الترجمة الحرفية ، إن كانت هذه الترجمة عن العبرية أو اليونانية أو الآرامية . .) .

(٢٢) إن النسخة الأقدم من الترجمة الإنجليزية المسماة Authorised Version (AV) العائدة إلى سنة ١٦٠٣ ـ ١٦٢٥ ، تورد النص بصيغة (. . وأحرقهم في أتون الآجر . .) .

(٢٣) للمزيد من التفاصيل حول الموضوع ، راجع فصل «شاوُل ومسألة فلسطين» في مؤلفنا بنو إسرائيل ، م . س . ذ .

(٢٤) باللغة الأصلية ، أي الكنعانية ، أن < وبنيهو بن يهويدع وهكرتي وهفلتي وبني دوود كوهنيم هيو>.

(٢٥) من المعروف أن التوراة لا تحوي أي فعل بصيغة < فلت > ، بما يعني أن مترجمي هذه النسخة استعانوا باللغة العربية في اجتهادهم ، ومن المعروف أن «الفلتان» ، يعني (السريع) ، كما تفيد المعاجم العربية بأن «الرجل الفلتان» ، هو (النشيط) ، ويبدو أن هذا هو ما شجع على تأويل المفردة لتفيد معنى (السعاة) .

(٢٦) للاطلاع على وجهة نظر مخالفة حول جذور وطبيعة الميثولوجيا في العهد القديم ، انظر المؤلف التالي :

- Ranke-Graves, Robert vonm & Patai, Raphael; Hebräishe Mythologie - Über die Schöpfungsgeshichte und andere Mythen aus dem Alten Testament, Reinbeck bei Hamburg, 1990.

(٢٧) د . عجينة ، محمد : **موسوعة أساطير العرب ـ عن الجاهلية ودلالاتها** ، بيروت : دار الفارابي ، ١٩٩٤ . الفصل الأول . وهذا عمل نقدي مسهب من جزأين يتعامل مع مسألة الأساطير والميثولوجيا من كافة النواحي ، وهو أفضل ما اطلعنا عليه من مراجع عربية .

(٢٨) انظر أيضا : د . النعيمي ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام** ؛ القاهرة ، سينا للنشر ، ١٩٩٥ .

(٢٩) يمكن للباحث المهتم مراجعة المؤلف التالي ذكره ، على أن يأخذ بعين الاعتبار أنه ذو طبيعة اعتذارية (apol-ogetic) . رغم ذلك فإنه ، مع الحذر المطلوب ، يحوي بعض المعلومات المفيدة . كما أنه يشير إلى مئات المراجع المتخصصة بموضوع «علم نقد التوراة» . أما المؤلف المترجم عن الإيطالية ، فهو :

- J. Alberto Soggin, "Introduction to the Old Testament": from its origins to the closing of the Alexandrian Canon; The Old Testament Library, Louisville, 1989[3].

(٣٠) الفهم التقليدي أن المقصود هنا موسى التوراة ، رغم أن الاسم لا يرد في النص .

(٣١) في الترجمة العربية دوما (مصر) .

(٣٢) النسخ القديمة من ترجمات العهد القديم لا تورد مصطلح «الحرب المقدسة» ، لكن هناك ترجمة جديدة اتفق عليها الاتجاهان الرئيسان في المسيحية ، أي الكاثوليك والابروتستانت ، ويطلق عليها اسم «الترجمة الموحدة ـ Einheitsübersetzung» . ورغم توفر نسخة منه بالعربية صدرت عام ١٩٩٣ عن جمعية الكتاب المقدس في لبنان ، إلا أنها ، وعلى عكس الترجمات الأخرى التي اطلعت عليها ، لا تشير للمصطلح ، لذا أحيل القارىء إلى

النسخة الألمانية التي تحوي المصطلح (الحرب المقدسة) ، والوارد ثلاث مرات في الأسفار ميخا ٣ :٥ ؛ ارميا ٦ :٤ ؛ يوئيل : ٤ :٩ ، وبغض النظر عما قصده رواة ومحررو العهد القديم ، تبقى حقيقة أن الفهم المعتمد حاليا يردد هذا المصطلح ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نحن على قناعة ، بناء على أسباب ذكرناها في قسم آخر من المقال ، بأن هذه النصوص تعود إلى التقليد «المحرر» .

(٣٣) من الفعل < حرم > والذي يعني «قتل ، إبادة» .

(٣٤) سفر التثنية ٧ : ١٤ ـ ١٦ .

(٣٥) سفر التثنية ١٣ : ١٥ ـ ١٦ .

(٣٦) سفر العدد ٣١ :٧ .

(٣٧) سفر العدد ٣١ :١٤ ـ١٧ ، ٣٥ .

(٣٨) سفر التثنية ٣ :٣ ـ ٦ .

(٣٩) أو «يرخو» ، وفي النص المترجم «أريحا» .

(٤٠) سفر يشوع ٨ :١ ـ ٢ .

(٤١) سفر يشوع ٨ : ٢٤ ـ ٢٥ ، ٨ .

(٤٢) سفر يشوع ١٠ :٤٠ .

(٤٣) سفر يشوع ١١ :١٨ ـ ٢٠ .

(٤٤) سفر القضاة ١ : ٨ ، ١٦ .

(٤٥) سفر القضاة ١ : ٢٣ ـ ٢٥ .

(٤٦) هكذا في النص الأصلي ، أما الترجمة العربية الخاطئة فتورد الاسم بصيغة «الفلسطينيين» ، رغم أن الاسم لا يرد لا في هذا النص ولا في أي مكان آخر مسبوقا بأداة التعريف المضافة في النص العربي المُتَرجم ، ومن الجدير بالذكر أن الترجمات الأخرى ، ومنها الإنجليزية والألمانية تورد الاسم بصيغة (Philistines, Filister) ، أي «الفلستيون» أو «الفَلَسَة» كما ويلاحظ أن الترجمة العربية الجديدة المشار إليها آنفا تورد الاسم بصيغة «الفلستيين» .

(٤٧) سفر القضاة ٣ : ٢١ .

(٤٨) سفر القضاة ٢٠ : ٤٨ .

(٤٩) سفر صموئيل الأول ١٥ : ١٨ ، ٣ ، ٧ ، ٨ .

(٥٠) صموئيل الأول ١٨ : ٢٧ .

(٥١) سفر صموئيل ٢٧ : ٨ ، ٩ .

(٥٢) سفر صموئيل الثاني ٢٢ : ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٠ .

(٥٣) يحوي العهد القديم ، بالإضافة إلى ما سبق من تحريضات ضد الشعوب والأقوام الأخرى ، دعوات تسامحية أيضا ، تجاه البعض . لكن تلك التعليمات أضيفت إليه بعد السبي البابلي وانصهار بقايا يهوذي السبي في مجتمعاتهم الجديدة . أي أنها ألحقت تمشيا مع الظروف المتجددة والمحيط الاجتماعي الأقوى ، التي وجد بقايا السبي أنفسهم في أحضانه .

(٥٤) سفر الملوك الأول ٢٠ : ٢٩ .

(٥٥) سفر الخروج ١١ : ٤ و ١٢ :٢٩ .

(٥٦) سفر الخروج ١٥ :٣ .

(٥٧) قارن سفر الخروج : ٢٠ :٥ .

(٥٨) سفر العدد ٢١ : ٥ .

(٥٩) انظر مثلا :

- Schwally, Friedrich Semitishe Kriegsaltertümer: Erstes Heft, "Der heilige Kriege im alten Israel";

Leipzig, 1901.

(٦٠) سفر الخروج ١٩ : ٦ .

(٦١) وبالإنجليزية Exclusivity.

(٦٢) هناك رأي بأن المقصود «الحرب المقدسة» ، لكننا على قناعة بأن المقصود كتاب عن الخرافات والأساطير التي كانت سائدة في الإقليم ، والتي وجد بعضها طريقه ، عن طريق الكهنة ، إلى التوراة .

(٦٣) سفر التكوين ٢٠ ـ ٢١ .

(٦٤) النص الأصلي يسجل بهذه الصيغة وليس «سيناء» كما يرد في الترجمة التقليدية التي هي تأويل ليس إلا . وقد سجلنا كافة أسماء المواقع الجغرافية كما ترد في النص الكنعاني ـ «العبري» ، لذا وجب التنويه .

(٦٥) سفر التكوين ٢٠ ـ ٢١ .

(٦٦) سفر العدد ١٦ :٣٥ .

(٦٧) في النص الأصلي «فرعه» . وهناك من يرى أن الشكل التقليدي للاسم ، أي (فرعون) ، صحيح حيث يستشهد بأن العرب عرفت قديما صيغة «فِعلَون» ، وحيث إننا لم نتمكن من التأكد من هذا الأمر ، ودون إهمال الرأي آنف الذكر ، نرجح أن الصيغة العربية الأصح للاسم هي (فرع) حيث تفيد المعاجم القديمة بأن فرع كل شيء هو (أعلاه) ، والفَرعَة (رأس الجبل وأعلاه خاصة) ، كما نقرأ أن فرع القوم هو (شريفهم) ، ونجد دعما آخر لصحة اجتهادنا عبر قراءة النقوش الآشورية العائدة لتغلات بلصر (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق .م) وسرجون الثاني الأكادي (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق .م .) التي تسجل الاسم بصيغة <في ـ ير ـ ع ـ و مو ـ صو ـ ري>.

(٦٨) في النص العربي المترجم (إبراهيم) .

(٦٩) سفر التكوين ١٨ :٢٣ .

(٧٠) سفر الخروج ٢١ :١٣ .

(٧١) سفر العدد ٣٥ :٣٣ .

(٧٢) سفر الخروج ٢١ :١٥ ـ ١٧ .

(٧٣) سفر الخروج ٢٢ :١٩ .

(٧٤) سفر الخروج ٢٢ :١٨

(٧٥) سفر الخروج ٢٢ :٢٠ .

(٧٦) قارن سفر التثنية ١٣ :٦ ـ ١٠ .

(٧٧) سفر الخروج ٢٢ :٢٧ .

(٧٨) سفر اللاويين ٢٦ :٢٧ .

(٧٩) سفر اللاويين ٢٦ : ٢٩ ـ ٣٣ .

(٨٠) قارن سفر اللاويين ٢٤ :١٦ .

(٨١) سفر العدد ٣ :٣٨ .

(٨٢) قارن سفر العدد ١٥ :٣٥ .

(٨٣) قارن سفر التثنية ١٧ :١٢ .

(٨٤) قارن سفر التثنية ٢١ : ١٨ ـ ٢١ .

(٨٥) انظر سفر التثنية ٢١ :٢٢ .

(٨٦) قارن سفر التثنية ٢٢ :١٣ ـ ٢١ .

(٨٧) هنا وجب ملاحظة الرواية التوراتية حول آدم وزوجه تعزو سبب طردهما من الجنة إلى كونهما أكلا من شجرة المعرفة (سفر التكوين ٣ : ٤ ـ ٥) لأنه «يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما وتكونان كالآلهة عارفين الخير والشر» ، لذا يقوم إله التوراة بطردهما لمنعهما من الأكل من شجرة الحياة ، وإقامة شرقي جنة عدن كهنة ـ حرفيا «مكربين» لحراستها . أي أن الهدف إقامة حاجز كهنوتي يمنع الاتصال المباشر بين الخالق والمخلوق .

(٨٨) قارن سفر التثنية ٢٤ :١٠ .

(٨٩) لقد طرح أحد الزملاء رأيه بأن أنبياء بني إسرائيل الرئيسين والمسجلة أسماؤهم في التوراة ، ولم يعرفهم القرآن بهذه الصفة ،كانوا شعراء ينظمون القصائد الدينية ـ والمراثي ، وأن هذا التقليد استمر في جزيرة العرب في المعلقات . إن هذا الموضوع مثير حقا ، ونعتقد أن الكثير يشاركنا الانتظار بفارغ الصبر للاطلاع على ما قد يصل إليه من نتائج .

(٩٠) قد يرى البعض بأن المقصود (يوم الحرب) ؛ انظر التعبير العربي (يوم العرب ، أيام العرب) ،لكن سياق النص يشير إلى (يوم الساعة) .

(٩١) سفر عاموس ٥ :١٨ .

(٩٢) نحن على قناعة بأن المقصود هنا المنجمون ، والجملة التالية ، أي «يُعرِّفون» تؤيد فهمنا .

(٩٣) سفر ارميا ٨ : ١ - ٢ .

(٩٤) سفر ميخا ٣ : ٩ - ١١ .

(٩٥) انظر الملاحظة رقم (١٠٠) .

(٩٦) سفر نحميا ١٣ : ٢٣ - ٢٥ .

(٩٧) انظر : - Nietsche, F., Werke in drei Banden, hrsg, von K. Schlechta, II 1965, S. 1234 f. Georg

(٩٨) - Christoph Lichtenberg; (1742 - 1799).

(٩٩) - karlheinz Deschner, Kriminalgeschichte des Christentums, Rowohlt Verlage, Hamburg, 1988

(١٠٠) للمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة انظر مؤلفنا بنو إسرائيل ...؛م س ذ . ،فصل «الأسباط الضائعة» .

(١٠١) من الجدير بالذكر أن بعض المراجع تسجل وجود تشجيع التحول لليهودية بما في ذلك إلغاء عملية الختان لتسهيل هذا «التهود» - انظر مادة (Proselyte) في

- The Jewish Encyclopedia, (12 Volumes), New York and London, MDCCCI.

(١٠٢) انظر : علي ، جواد :**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ١٠ مجلدات ، بيروت ، بغداد : الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ - مجلد ٦ ، الفصل ٧٦ ، ومن ذلك القول في ص ٥٣٠ (وقد ذهب بعض المستشرقين .... إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهودا حقا ، بل عربا متهودين ، تهودوا بتأثير الدعاة)! .

(١٠٣) - G. Newby: "A History of the Jews in Arabia" - From Ancient Times to Their Eclipse Under Islam. University of South Carolina Press, Columbia 1988.

(١٠٤) هناك إشارة واحدة فقط في مقدمة سفر حكَم يسوع سِرَك الذي هو من الأبوكريفا ، وهو من الإنتاجات الأدبية المتأخرة جدا .

(١٠٥) يعتبر أهل الاختصاص النصوص الواردة في سفر إشعيا ٢٩ :٢٢ ، ارميا ٣٣ :٢٦ وميخا ٧ :٢٠ إضافات لاحقة من التقليد «المحرر» .

(١٠٦) وبالعربية (شفة كنعان) - ونعتقد أن المقصود هنا «لهجة» وليس (لغة) لأن رديف الأخيرة بلغة التوراة «لشون» - قارن (لسان) بالعربية - انظر سفر إشعيا ١٩ :١٨ .

(١٠٧) لقد تناولنا الموضوع في دراسة مسهبة بعنوان «من هم العبرانيون» ستنشر في عدد شهر أكتوبر من المجلة الثقافية التي تصدر عن الجامعة الأردنية ، والتي هي توسيع لمحاضرة ألقيناها في شهر نوفمبر المنصرم في منتدى عبدالحميد شومان الثقافي بالعاصمة الأردنية .

(١٠٨) انظر مثلا مادة عبري في المراجع التالية :

- Theologischer Worterbuch zum Alten Testament; Stuutgart. Berlin Koln. Mainz.

Die Bibel von A-z; Salzburg.

(١٠٩) حول المعاني المختلفة كما ترد في مختلف أسفار العهد القديم ، أنظر مادة «عبر» في المرجعين التاليين :

- Gesenius, Wilhelm, HEBRAISCHES UND ARAMAISCHES HANDWORTERBUCH UBER DAS

MENT; Berlin, Gottingen, 1962[17].

- Koehler, L. & Baumgartner, W.; HEBRAISCHES LEXIKON ZUN ALTEN TESTAMENT; Leiden 1967[3].

(١١٠) إن منهجية الاستعانة بالعربية وغيرها من لغات المشرق العربي القديمة مثل المسند والأكادية والآرامية ،الخ ، للتعرف على معاني الكثير من المفردات الواردة في العهد القديم لا جدال حولها ، ويمكن للمهتم التأكد من ذلك عبر تصفح أي قاموس توارتي - مثلا المشار إليه في الهامش السابق . وحيث إن لغة التوراة تعتبر ميتة منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ،فإن كافة القواميس المتخصصة بالتوراة هي معاجم مقارنة تستعين بالعربية وغيرها من لغات المشرق القديم . وبالإضافة إلى المعجمين المذكورين في الهامش السابق ، يمكن العودة إلى المراجع التالي :

- D. Dr Dalman, GustaH.; ARAMAISCH-NEUHEBRAISCHES HANDWORTERBUCH ZU TARGUM, TALMUD und MIDRASH. Gottingen, 1938.

- Leslau, Wolf, Ethiopic and South Arabic Contributions to the Hebrew Lexicon; Berkeley and Los Angeles, 1958.

- Ludwig Koehler et W. Baumgartner (ed)., Supplementum ad Lexicon Veteris Testamenti Libros; Leiden 1958.

- Berthold Spuler und Hans Wehr (hrsg.) Porta Linguarum Orientalium: An Aramaic Handbook, Parts 1/2 and II/2; Wiesbaden 1967.

(١١١) من الواضح أن الأمر اختلط على مترجمي «السبعونية» الذين فهموا أن المصطلح <عبري> يشير أحيانا إلى (الطرف الآخر) ، مما جعلهم يترجمون المصطلح <عبرم هعبري> إلى (أبرام المتنقل) ، وباليونانية perates، بمعنى (الذي من الطرف الآخر) ، وقد قيل لي إن أهل قطر يعرفون الشخص الواقف على الطرف المقابل من طريق منتظر المواصلات التي تنقله مصطلح «عبري» .

(١١٢) سفر التكوين ١٧ : ٩- ١٤ .

(١١٣) المقصود هنا السكان أو الشعب ، وليس المملكة .

(١١٤) هناك العديد من المؤلفات القديمة عن هذه الحالات اللغوية ،لكننا نحيل القارىء إلى مؤلفات حديثة ومنها : كمال ،ربحي : **التضاد في ضوء اللغات السامية** ، بيروت ، :١٩٧٥ ، وسَلُّوم ، داود . :**دراسة اللهجات العربية القديمة** ، بيروت : ١٩٧٥ . انظر أيضا فصل (الهدف والمنهجية) في مؤلفنا **جغرافية التوراة - مصر وبنو إسرائيل في عسير** ،لندن : ١٩٩٤ .

(١١٥) راجع حول هذا الموضوع مؤلف : كِرُّو ، أبو القاسم محمد : **ابن خلدون والعرب** ؛ تونس/ بيروت : دار المغرب ، ١٩٨٨ .

(١١٦) انظر أيضا مقالة عبده ، بسام مصطفى : «الدلالات اللغوية والتاريخية لكلمة عرب» في **المجلة الثقافية** التي تصدر عن الجامعة الأردنية ، عدد ٣١ ، ١٩٩٤ .

(١١٧) لا يتناقض هذا مع حقيقة أن العرب عرفت نفسها بعد الإسلام بالاسم ، أي توظيفه كاسم جنس .

(١١٨) الصليبي ، كمال : **حروب داود** ، الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري . عمان : دار الشروق ١٩٩٠ .

(١١٩) إن طبيعة هذا المقال المحدودة لا تسمح لنا بالتعامل التفصيلي مع المسألة ،لكننا نأمل بالعودة إليه ، في مؤلف منفصل يبحث الموضوع بالإسهاب المطلوب .

* * *